وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ
ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٤﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٥٥﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٦﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٧﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ
﴿٥٨﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟
مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى
يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَشْهَدُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٣﴾ قَالَ
بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٤﴾
فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٧﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

شرح الكلمات:

رُشده: الرُّشد: الاستقامةُ على طريق الحق مع تصلُّبٍ فيه (الأقرب).

جُذاذًا: الجُذاذ: المقطَّعُ المكسَّرُ؛ ما تَكسَّرَ من الشيء (الأقرب).

نُكسوا: نكَسه: قلَبه على رأسه وجعَل أسفلَه أعلاه ومقدَّمه مؤخَّرَه. ونكَس رأسَه: طَأْطأَه مِن ذُلٍّ. ونُكِسَ المريض: عاوَدَه المرضُ كأنه قُلب إلى المرض. ونُكِس الرجلُ: ضعُف وعجَز (الأقرب).

فالمراد من قوله تعالى ﴿ثم نُكسوا على رؤوسهم﴾ ١- عادوا إلى سيرتهم الأولى من الشر، ٢- خُفّضتْ رؤوسهم من ذلٍّ، ٣- بما أن المعنى الأصلي للنكس هو قلب الشيء رأسًا على عقب، كما ذُكر أعلاه، فقد قال الآلوسى صاحب روح المعاني إن قوله تعالى ﴿ثم نُكسوا على رؤوسهم﴾.. يصح استعماله بمعنى أن أعداء إبراهيم عليه السلام طأطأوا رؤوسهم لشدة ندامتهم وحيرتهم.

التفسير: يقول الله تعالى إننا آتينا إبراهيم الهداية الملائمة لزمنه قبل موسى، وكنا أدرى بظروف ذلك العصر. كان قومه وعمه مشركين. علمًا أن الأب قد ورد هنا بمعنى العم إذ كان والد إبراهيم قد مات من قبل. فقال لأبيه (أي لعمه) وقومه ﴿ما هذه التماثيل التي أنتم لـــها عاكفون﴾.. أي ما هذه الأصنام التي تجلسون أمامها ليلاً ونهارًا؟ قالوا لقد وجدنا آباءنا هكذا يفعلون.

علمًا أن إبراهيم عليه السلام قد استخدم تعبير ﴿ما هذه التماثيل﴾ على سبيل الاحتقار لا من أجل الاستخبار، إذ كان يعلم ما تلك التماثيل وما حقيقتها؟ فكان يعني كيف تعبدون هذه الأشياء الحقيرة الذليلة؟

الواقع أن معرفة أسلوب كلام أحد تساعد كثيرًا على فهم قصده. وكان إبراهيم عليه السلام يتكلم عادة بكلام فيه تعريض وتعيير، وقوله ﴿بل فعَله كبيرهم هذا﴾ وقوله ﴿ما هذه التماثيل﴾ أيضًا من قبيل هذا الكلام المليء بالتعيير والاحتقار.

ونجد هنا مماثلة غريبة بين رسول الله ﷺ وإبراهيم عليه السلام. فكان والده ﷺ قد توفي قبل ولادته، وكان والد إبراهيم أيضًا قد توفي قبل مولده. وكلاهما لم يربه والده، فالرسول ﷺ رباه عمه وقد كان مشركا، أما إبراهيم عليه السلام فرباه أبوه (أي عمه) آزر وكان مشركا أيضا، وكلاهما دعا من رباه إلى التوحيد. لقد قال لإبراهيم أباه وقومُه إنا نعبد هذه الأصنام لأننا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، وبالمثل

لما دعا رسول الله ﷺ عمه أبا طالب إلى الإسلام قال لـــه عمّه: يا ابن أخي، إني أعلم أن ما تقوله حق، ولكني لو اتبعتك لقال قومي إن هذا قد ترك دين آبائه (السيرة النبوية لابن هشام مجلد ١ ص ٥٨-٥٩). ثم إن إبراهيم قال لكبار قومه هل تتبعون آباءكم ولو كانوا لا يعملون شيئًا وكانوا من الضالين، وهذا ما قاله نبينا ﷺ أيضًا لكبار قومه (المائدة: ١٠٥).

عندها قال قوم إبراهيم عليه السلام هل جئت بتعليم حق أم أنك من الساخرين؟ هل صحيح أن آباءنا يمكن أن يقعوا في الخطأ؟

إن قلوب الكفار تكون مرعوبة من قوة استدلال أنبيائهم وبراهينهم، ولكي يتهربوا من تلك الفكرة المرعبة التي تنتاب قلوبهم، يتمنون دائمًا أن يقول الأنبياء بأنفسهم أنهم كانوا يمزحون معهم. كان الخليفة الأول رضي الله عنه (للمسيح الموعود عليه السلام) يحكي لنا حال الحكيم إله دين، فيقول إن هذا كان ينكر وفاة المسيح عليه السلام، وكان يقول إن حضرة الميرزا إنما أعلن وفاة المسيح الناصري عليه السلام إهانةً وإخزاءً للمشايخ فقط، ولو أن المشايخ كلهم طلبوا منه العفو لألغى دعواه هذه!

فالحق أن هؤلاء القوم مثلهم كمثل من يتعرض لحادث خطِر، ومع ذلك يبقى في قلبه بارقة أمل ضعيف، فيظن أن ما يحدث إنما هو حلم فحسب. ولذلك نجد قوم إبراهيم عليه السلام أيضًا يقولون لـــه هل أنت تمزح معنا؟ هل صحيح أن آباءنا يمكن أن يخطئوا؟

فأجابهم إبراهيم وقال إنما ربكم رب السماوات والأرض الذي خلقهن، وأنا على ذلك من الشاهدين القائمين بالبرهان. وسأكيد بأصنامكم كيدًا عندما ترجعون إلى بيوتكم.

يقول المفسرون أن شخصًا من قوم إبراهيم عليه السلام سمع قوله، وقيل سمعه قوم من ضعفائهم ممن كانوا يسيرون في آخر الناس يوم خرجوا إلى العيد (روح المعاني). والحقيقة أن القوم لما لم يقبلوا قول إبراهيم عليه السلام رغم ما ساق لـــهم من الأدلة والبراهين، أراد إبراهيم أن يكشف عليهم شناعة أوثانهم بصورة عملية وهي في حد ذاتها برهان ذو تأثير أقوى. فكسر الأصنام كلها قطعًا إلا أكبرها، آملاً أن يهديهم

ذلك إلى الله تعالى. فاستشاط قومه غضبًا وقالوا من فعل هذا بآلهتنا؟ إنه جدُّ ظالم. فقال لهم الذين تحاوروا مع إبراهيم من قبل: سمعنا فتى يذكرهم يقال لـــه إبراهيم. و﴿يذكرهم﴾ يعني يذكر آلهتهم بسوء ويعيبها، بدليل قوله تعالى في هذه السورة نفسها ﴿وإذا رءاك الذين كفَروا إنْ يتّخذونك إلا هُزُوًا أهذا الذي يذكُر آلهَتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾(الآية: ٣٧). فقال كبراء قوم إبراهيم احشروا الناس كلهم حتى يشهد ضد إبراهيم من رآه يفعل هذا بآلهتنا، لكي يتأكد أن هذا الفعل لم يصدر إلا عمن ينكر عبادة الأصنام، أو حتى يقرروا عقابه، أو حتى يشاهدوا عقابه. ثم قالوا لإبراهيم عليه السلام: أأنت فعلتَ هذا بآلهتنا؟ قال: ﴿بل فَعَله﴾ أي قد فعله فاعل، إذ لا يمكن أن يحصل هذا بدون أن يفعله أحد! ﴿كبيرُهم هذا﴾.. أي لم تسألونني عن هذا؟ ها هو أكبر أصنامكم واقف إزاءكم، فاسْألوا صاحبكم هذا. ولا بد أن يردّ عليكم إن كانت أصنامكم قادرة على الكلام أصلاً.

علمًا أن لقوله تعالى ﴿بل فعَله﴾ مفهومان: أولهما: "بل فعله فاعلٌ"، وعليه فلا يكون لفظ ﴿بل﴾ هنا للإضراب، وإنما للتصديق.. أي أن فاعلاً قد فعله حتمًا. والثابت من علامة الوقف في المصحف في هذا المقام أن الجملة التالية منفصلة حيث قال إبراهيم لماذا توجّهون هذا السؤال إليّ أنا؟ اسألوا كبير أصنامكم هذا.

والمفهوم الثاني هو أن يكون ﴿بل فعَله﴾ تعريضًا من إبراهيم عليه السلام كما كان دأبه، وكأنه قال: كيف يمكن أن أفعله أنا، بل فعله كبيرهم هذا؟ وكان يقصد: لم تسألوني هذا السؤال؟ إذا كنتُ لم أفعله فهل فعله كبير الأصنام هذا؟

فأصابهم خجل كبير لما سمعوا هذا الجواب، وقالوا متلاومين فيما بينهم إنكم أنتم الظالمون. ثم لما أمعنوا النظر أكثر خجلوا أكثر، ولكنهم عادوا إلى سيرتهم الشريرة وقالوا لإبراهيم: ألا تعلم أن هؤلاء لا ينطقون؟ فرد عليهم وقال: هل تعبدون من دون الله أصنامًا لا تنفعكم ولا تضركم شيئًا؟

إن هذه الآيات تعقد مقارنة رائعة بين النبي ﷺ وإبراهيم عليه السلام. كان والد إبراهيم قد توفي وهو صغير●، وكان والد محمد رسول الله ﷺ أيضًا توفي قبل مولده، وكان كل واحد منهما قد تربى عند عمه، وكان عم كل واحد منهما مشركًا، وكلاهما قد دعا عمه إلى التوحيد، ورفض عم كل واحد منهما الإيمان بالتوحيد. وكان كل واحد من هذين النبيَّين مستمسكًا بالتوحيد بكل قوة، فكان كلاهما يؤمنان على وجه البصيرة بأن الله تعالى هو خالق السماوات والأرض. ثم إن إبراهيم عليه السلام قد كسر الأصنام، ولكنه كسرها عندما رجع قومه إلى بيوتهم، أما النبي ﷺ فأيضًا قد كسر الأوثان، ولكنه كسرها في وضح النهار حين كان الناس كلهم مجتمعين حول الكعبة. كانت بيده المباركة عصا يضرب بها الأصنام ويلقيها على الأرض، وما كان لأحد أن يقول أفٍّ على ذلك (السيرة الحلبية مجلد ٣ ٩٩). لا شك أن إبراهيم عليه السلام كان عظيمًا، ولكن شتان بينه وبين حبيبي محمد! اللهم صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ على محمد عددَ كل ذرة في السماء والأرض بل أكثر.

قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٩﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٧٠﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧١﴾

شرح الكلمات:

كيدًا: الكيد: المكرُ والخبثُ؛ الحيلةُ؛ الحربُ؛ إرادةُ مَضرّةِ الغيرِ خُفيةً (الأقرب).

التفسير: يبدو أن تلك النار قد أُخمدت بسبب غيبي كالريح أو المطر وغيرهما، ولذلك قال الله تعالى هنا ﴿ يا نارُ كوني بردًا﴾، ولم يقل "يا نار لا تحرقي". والحق أن ترسيخ الإيمان بالغيب في القلوب يتطلب مثل هذا الأسلوب الذي يكتنفه شيء من الخفاء، وإلا فلا فائدة من الإيمان.

● هكذا ورد في الأصل. (المترجم)

وهنا أيضًا نجد شَبهًا كبيرًا بين محمد رسول الله ﷺ وإبراهيم عليه السلام. لقد قال قوم إبراهيم عليه السلام ﴿حرِّقوه وانصروا آلهتَكم﴾، وهذا يعني أنهم ظنوا أنه لا يزال أمامهم طريق مفتوح لنصرة آلهتهم. أما قوم النبي ﷺ فقد قرروا بأن يسجنوه أو يقتلوه أو ينفوه من الوطن. قال الله تعالى مشيرًا إلى ذلك ﴿وإذ يمكُر بك الذين كفَروا ليُثبتوك أو يقتُلوك أو يُخرجوك ويمكُرون ويمكر اللهُ واللهُ خيرُ الماكرين﴾(الأنفال: ٣١). وبالفعل قد أوقد أهل مكة نار الحرب ضد الرسول ﷺ طيلة عشر سنوات، ومع ذلك فشلوا. وصارت نيران الحرب التي أوقدوها لحرق الرسول ﷺ سببًا في رقيه ونجاحه، وفي النهاية دخل محمد رسول الله ﷺ في مكة فاتحًا، حتى إن ألد أعدائه أيضًا جاءوه يبايعون على يده ﷺ. كان النبي ﷺ قد أمر بقتل هند أينما وُجدتْ إذ حرضّت كثيرًا على قتل المسلمين. ولكنها خرجت للبيعة متنكرة متنقبة بين النساء. ولما قال لهن النبي ﷺ في أثناء البيعة: أيها النساء، بايِعْنَني أن لا تُشركْنَ بالله، لم تملك هند نفسها، وكانت امرأة مرهفة الحس، فقالت: يا رسول الله، هل نشرك بالله بعد هذا كله؟ كنتَ وحيدًا وكانت معنا كل العرب وأصنامنا، ومع ذلك انتصرتَ علينا. لسنا أغبياء لدرجة أن نظن بعد كل ما حصل أن الأصنام تملك شيئًا من القوة !*

فترى كيف جعل انتصار محمد رسول الله ﷺ المشركين يائسين تمامًا، بينما ما زال أعداء إبراهيم عليه السلام يقولون تعالوا وانصروا آلهتكم.

ولا بد من التوضيح هنا أن المعبد الذي كسر فيه إبراهيم عليه السلام الأصنام كان مِلكًا لعائلته، ولولا ذلك لما جاز لـــه كسر أصنام الآخرين. لقد كان معبدًا عائليًّا

---

* هناك رواية تنسب هذا المعنى إلى زوج هند أبي سفيان حيث ورد أن الزبير بن العوّام قال لأبي سفيان يوم الفتح حين كُسر صنمُ هُبَل: "يا أبا سفيان، قد كُسر هُبَل! أما إنك قد كنتَ منه يومَ أُحُد في غرور، حين تزعم أنه قد أنعمَ! فقال أبو سفيان: دَعْ هذا عنك يا ابنَ العوّام، فقد أَرَى لو كان مع إلهِ محمدٍ غيرُه لكان غيرَ ما كان." (كتاب المغازي للواقدي: شأن غزوة الفتح ج ٢ ص ٨٣٢) *(المترجم)*

لإبراهيم عليه السلام، وقد ورثه من الآباء، ولكنه لما كان إبراهيم يكره الشرك منذ نعومة أظفاره فكسر الأصنام في هذا المعبد الذي كان يدرّ على عائلته بدخل كبير، كما كان مدعاة لعزهم وشهرهم. فلما كسرها ثارت ضجة في كل البلاد، ورُفع الأمر إلى الملك. وكان جزاؤه، وفق عرف البلاد وقوانين الملك، حرق المجرم. وكان من التقاليد القديمة إحراق كل من يسيء إلى الأصنام، لأن الإساءة إليها كانت تُعَدّ في الزمن القديم ردّةً جزاؤها الإحراق أو الرجم. فمثلاً لما نشأت فرقة البروتستانت بين المسيحيين في أوروبا أُحرقَ أتباعها بتهمة الارتداد. أما في آسيا فكانوا يُقتلون رشقًا بالأحجار. فكان إبراهيم عليه السلام على علم أن عقوبة كسر الأصنام هي الحرق، ولكن الله تعالى أراد أن يُري آية. فلما أوقدوا النار في النهاية، وألقوا فيها إبراهيم عليه السلام، هطلت الأمطار في تلك اللحظة نفسها وأخمدت النار، فخرج منها إبراهيم سالمًا معافى. وبما أن عبدة الأوثان يتّبعون الأوهام كثيرًا، فلما خمدت النار بالأمطار، ظنوا أن هذه هي المشيئة الإلهية، فخافوا وخلّوا سبيل إبراهيم عليه السلام.

وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾

التفسير: كان إبراهيم عليه السلام في أول أمره يسكن بمدينة "أور" بالعراق. ثم انتقل منها إلى حاران التي تقع في أعالي العراق. ثم هاجر من هنالك بأمر الله تعالى إلى أرض كنعان التي كتبها الله لأولاده في المستقبل.

يقول الله تعالى في هذه الآية إنه قد نجى إبراهيم ولوطًا وجعلهما ناجحين وأخذهما إلى فلسطين. وبالمثل تمامًا قد نجى الله تعالى محمدًا رسول الله ﷺ من أعدائه، كما أدخل أحد غلمانه عمرَ رضي الله عنه في بيت المقدس فاتحًا منتصرًا.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾

شرح الكلمات:

نافلةً: من النفل وهو الزيادة على الواجب. والنافلة ولدُ الولدِ (المفردات).

التفسير: يقول الله تعالى إننا وهبنا لإبراهيم إسحاقَ ويعقوب هبةً وإنعامًا. وقد قطع الله الوعد لمحمد رسول الله ﷺ أيضًا وعدًا مماثلاً، فعلّم المسلمين دعاء: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. أي يا رب، أَنزِلْ فضلك على محمد وأولاده الروحانيين القادمين كما تفضلت على إبراهيم وعلى أولاده إنك حميد مجيد.

يعترض البعض لجهله ويقول ما دامت درجة محمد ﷺ أعظم كثيرًا من درجة إبراهيم، فمن المهازل أن نؤمر بأن ندعو لمن هو أعظم درجة بأن يعطى ما أُعطيَ من هو أدنى منه درجة، وأن لا ندعو بهذا الدعاء مرة، بل نستمر في ترديده إلى يوم القيامة! إن هذا الدعاء يماثل دعاء من يقول رب اجعل المدير الأعلى لشرطة البلاد ناظر محطة شرطة القرية!

فليكن معلومًا بهذا الشأن أن القرآن الكريم قد ذكر قسمين من محاسن إبراهيم عليه السلام. أولهما المحاسن الذاتية مثل كونه عليه السلام أوّاهًا، منيبًا، صدّيقًا ومن المقربين. ولا جرم أن محمدًا رسول الله ﷺ أسمى درجة من إبراهيم عليه السلام في هذه المزايا والمحاسن، وإلا فكيف صار خاتمَ النبيين وسيدَ وُلْدِ آدم. فالمقام المحمدي أعلى وأعظم من المقام الإبراهيمي يقينًا. ولكن، بالإضافة إلى هذه المحاسن الذاتية لإبراهيم عليه السلام، نجد أن القرآن الكريم قد ذكر له ميزة أخرى، وهي تلك التي تجلت في شكل الإنعام القومي. وبيانها أن إبراهيم عليه السلام دعا ربه وقال ﴿ربَّنا واجعلْنا مسلمَينِ لك ومِن ذريتنا أُمّةً مسلمةً لك﴾(البقرة: ١٢٩).. أي يا رب، اجعلنا مطيعينِ لكَ صادقينِ، وأَخرِجْ مِن نسلنا أمة تحظى برضوانك وتتبع سبل مرضاتك. فاستجاب الله دعاءه حيث قال ﴿وجعلنا في ذريته النبوةَ والكتابَ﴾(العنكبوت: ٢٨). وهذا يعني أن الله تعالى أعطى إبراهيم أكثر مما سأل. لذا فإننا حين ندعو الله تعالى في الصلاة الإبراهيمية ونقول يا رب أَمطِرْ أفضالَك على محمد ﷺ كما تفضلت على إبراهيم، فكأننا نقول يا رب عامِلْ محمدًا مثل المعاملة التي عاملتَ بها إبراهيم. لقد وهبتَ إبراهيم عليه السلام أكثر مما سألك، فيا رب آت محمدًا ﷺ كذلك أكثر مما سألك. ومن

الواضح أن إبراهيم قد دعا الله تعالى وفق عرفانه، وأن محمدًا ﷺ قد دعاه تعالى بحسب عرفانه هو، بل الحق أن محمدًا ﷺ قد دعا الله تعالى بأدعية لم يدع بها الأنبياء كلهم معًا في رأيي. ولما كان من المسلم به أن محمدًا ﷺ كان أكثر عرفانًا من إبراهيم عليه السلام، فلا بد أن تكون أدعيته ﷺ أفضل من أدعية إبراهيم، وبالتالي لا بد أن يكون ما يُعطَى النبي ﷺ أفضل وأكثر مما أُعطيَه إبراهيم عليه السلام.

إذًا فقد عُلّمنا في الصلاة الإبراهيمية لرفع درجات النبي ﷺ ورقي أمته دعاءً يبلغ من الجامعية والشمول بحيث لا يمكن تصور دعاء أفضل منه، حيث أُمرنا أن نقول يا رب أَنزِلْ على محمد رحمةً هي أفضل مما أنزلتَه على ذرية إبراهيم بواسطته، أي أنك كما أعطيت إبراهيم أكثر مما سأل كذلك أعطِ محمدًا من الجوائز والصلات أكثر مما سأل. وبما أن أدعية النبي ﷺ هي أفضل من أدعية إبراهيم من حيث سعة فيوضها وبركاتها، فلا بد أن يكون النبي ﷺ أكثر نوالاً للجوائز والصلات من إبراهيم عليه السلام.

الحق أن الناس قد وقعوا في الخطأ لورود كلمة "كما صليتَ" في هذا الدعاء، مع أن "ما" هنا مصدرية، والمعنى يا رب صلِّ على محمد كصلاتك على إبراهيم. فلو قيل "صلِّ على محمد بقدر صلاتك على إبراهيم" بدلاً من " كما صليتَ على إبراهيم" لصحَّ ما يزعمون، ولكن الله تعالى لا يتحدث هنا عن المقدار والكمية، وإنما عن القسم والنوعية، والمراد يا رب هَبْ محمدًا ﷺ وأولاده من نفس البركة التي وهبتَها إبراهيم عليه السلام وأولاده. ولم تكن تلك البركة إلا أن الله تعالى أعطى إبراهيم أكثر مما سأله. وهكذا فقد عُلِّمنا بأن ندعو الله تعالى أن يا رب أَمطِرْ على محمد رسول الله ﷺ وأمته من عطائك وكرمك أكثر مما سألك.

إن المسيحية هي أكبر فتنة ضد الإسلام في هذه الأيام، وإنها تدعي بأن عيسى كان من أولاد إبراهيم (متى ١: ١٧)؛ وعليه فكأننا قد عُلِّمنا في الصلاة الإبراهيمية دعاء يقول: يا رب إن كل هذا الرقي والتقدم الذي يحرزه العالم المسيحي إنما هو نتيجة لوعدك مع إبراهيم عليه السلام، فنتوسل إليك يا رب أن أَنزِلْ على نسل إسماعيل.. أي محمد رسول الله ﷺ وأتباعه.. مِن أفضالك أكثر مما أنزلتَ على الفرع الآخر

من الشجرة الإبراهيمية أي على نسل إسحاق. فالآن لو نزع الله تعالى بركاته من ذلك الفرع وأجراها في نسل إسماعيل لماتت المسيحية في ليلة وضحاها. فثبت أن الصلاة الإبراهيمية دعاء عظيم عُلّمناه لرقي الإسلام والمسلمين. ثم إنه دعاء يشمل كل مسلم من كل قطر ومنطقة من العالم. وهذا يعني أنه لا يخرج عن هذا الدعاء الكامل الشامل النبي ﷺ ولا أي فرد من أمته.

الحق أن القوة التي تتمتع بها الشعوب الأوروبية إنما ترجع إلى ما قطع الله تعالى مع إبراهيم من وعود لنسل إسحاق، ولو أن الله تعالى بدأ تحقيق وعوده الخاصة بنسل إسماعيل لقُضي على المسيحية كما قُضي على عهد حزقيال وإرميا وإشعياء ويحيى وغيرهم من الأنبياء - عليهم السلام - ببعثة محمد رسول الله ﷺ، ولنال الإسلام من المجد والشوكة ما لا يمكن أن يخطر ببال المسلمين.

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

التفسير: أي كان هؤلاء أئمة عصورهم ينشرون أحكام الله تعالى في الدنيا. وبهذا المعنى تمامًا قال رسول الله ﷺ "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَن يجدّد لها دينَها" (أبو داود: كتاب الملاحم، باب ما يُذكر في قرن المائة).. أي أن الله تعالى سيبعث في أمتي أيضًا على رأس كل قرن شخصًا يجدد الدين، ويقيم الإسلام ثانية بإزالة ما تطرق إلى الناس من فساد. إن هذا الحديث يبين في الواقع ما يعنيه قول الله تعالى ﴿إنّا نحن نزّلْنا الذِّكْرَ وإنّا لـــه لحافظون﴾(الحجر: ١٠). وهذا يعني أن المعنى الذي ذكره القرآن الكريم قد بينه الرسول ﷺ بأسلوب آخر، وذلك كيلا يظن المتمسكون بحرفية الكلام أن هذه الآية إنما تتحدث عن الحماية

الظاهرة للقرآن فحسب، بل عليهم أن يدركوا أن فيها وعدًا بحمايته المعنوية أيضًا، التي لا بد لها من بعثة المجددين والمأمورين. ولو أمعنا النظر لوجدنا أن هذه الميزة الفريدة حقًّا التي تميز الإسلام عن باقي الأديان. أما إذا كانت القصص والروايات تكفي لإثبات فضل دين فما أكثرَها عند الهندوس والمسيحيين. إن فخر الإسلام يكمن في أن الله تعالى يبعث في كل زمن أناسًا ربانيين يقدّمون أنفسهم للعالم كدليل على صدق الإسلام، ويقولون إن رب الإسلام لا يزال يكلّمنا ويُطلعنا على غيبه الآن أيضًا؛ فتعالوا وبارِزونا في هذا المضمار إن كنتم صادقين. وليس بوسع أهل أي دين أن يصمد أمامهم، إذ يدركون في قرارة أنفسهم أنهم لا يتبعون إلا دينًا ميتًا لا يقدر على تقديم أي آية حية جديدة تدل على حياته. فمثل الديانات الأخرى كمثل شجرة قد سقطت أوراقها نتيجة الخريف، فلا تقدر على أن تشبع بطنًا بثمارها، أو تُظلّ أحدًا بظلالها. أما الإسلام فهو كشجرة مثمرة لا يُحرم أهل أي عصر من ثمارها الحلوة، وهكذا يتجلّى صدق الإسلام وصدق محمدٍ رسول الله ﷺ على الناس في كل زمن.

أما قوله تعالى ﴿ولوطًا آتيناه حُكمًا وعلمًا﴾.. فاعلم أن أكبر غاية لبعث الأنبياء أن يوصلوا الناس إلى ذلك النبع الذي من المحال أن تستمر حياتهم الروحانية من دون الارتواء بمائه.. أي أن يربطوهم بالله تعالى بوثاق قوي. وهذا الأمر مستحيل بدون تيسُّر العلوم الروحانية. وإنما يهدي الناسَ في الأمور الروحانية مَن تيسرت لـــه المعرفة التامة بالله تعالى واطلع على سبل التقرب إليه تعالى، ونال العلم الدقيق بصفات البارئ ﷻ. لذا فلا بد لمن يدعي بأنه مأمور من الله تعالى أن يتولى الله بنفسه تربيته العلمية، ويهب لـــه معارف روحانية تكون عديمة المثال بالنظر إلى زمنه. ولذلك يقول الله تعالى هنا عن لوط عليه السلام ﴿آتيناه حُكمًا وعلمًا﴾، كما قال ذلك عن غيره من الأنبياء أيضًا. والحق أن المعجزات العلمية لهي أكبر وأقوى وسيلة لمعرفة صدق أي مأمور من الله تعالى حيث يصاب المعارضون إزاءها بالبكم التام. لا شك أن كل نبي جاء إلى الدنيا قد أُعطي المعجزة العلمية، بيد أن المعجزة العلمية التي أُعطيها محمد رسول الله ﷺ تبلغ من العظمة والسمو بحيث لا يوجد لها نظير

عند أي نبي. لقد صارت معجزات الأنبياء الآخرين قصصًا من الماضي بحيث يستحيل تقديم أي دليل على وجودها، ولكن الآية العلمية التي أُعطيها محمد رسول الله ﷺ ستظل حية إلى يوم القيامة وتقيم الحجة على الأعداء في كل زمان. فقد آتاه الله ذلك الكتاب العظيم الذي فيه تحدٍّ مفتوح موجه إلى العالم كله إلى يوم القيامة، بأن يتقدموا فيأتوا بنظير لهذا الكتاب إن كانوا صادقين. وإن لم يستطيعوا ذلك فليأتوا على الأقل بسورة واحدة تحوي من العلوم والمعارف والأنباء ووسائل تزكية النفس ما تحتوي عليه سورة واحدة من القرآن الكريم. لقد مضى على هذا التحـــدي ثلاثة عشر قرنًا من الزمان ولكن الدنيا لم تقدر على قبوله، ولن تنفك تتهرب من قبوله إلى يوم القيامة، وهكذا سيضطر كل إنسان عاقل للاعتراف بأن منافسة معارف محمد رسول الله ﷺ لضربٌ من المحال.

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٧﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٨﴾

شرح الكلمات:

الكرب: الحزنُ والغمُّ يأخذ بالنَّفْس (الأقرب).

التفسير: لقد ذكر الله تعالى هنا نوحًا عليه السلام واستجابته لدعائه. وهكذا قد أوصل ذكر الرسول ﷺ حتى آدم عليه السلام، لأن نوحًا كان حفيدًا لآدم، وكان أول نبي نزل عليه الشرع. يقول النبي ﷺ عن نوح: "إنه أول نبي شُرعت على لسانه الشرائعُ". وقد أشار القرآن الكريم إلى الموضوع نفسه في قوله تعالى ﴿إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾(النساء: ١٦٤). وهذا يعني أن أول وحي مشتمل على العقائد قد نزل على نوح عليه السلام بحسب القرآن، ذلك لأن العقل الإنساني قد بلغ عندها من الارتقاء والتطور بحيث أخذ يستوعب الصفات الإلهية

من ناحية، ومن ناحية أخرى بدأت تنشأ في الناس تلك المساوئ التي هي نتيجة حتمية للتعايش المتمدن. فبُعث نوح عليه السلام كأول نبي مشرع لكي يتم إصلاح المفاسد ويُفتح الباب للمزيد من الترقيات الروحانية. وكان إبراهيم من أتباع نوح عليهما السلام: قال الله تعالى في القرآن الكريم عن نوح ﴿وإنّ مِن شيعته لإبراهيمَ﴾(الصافات: ٨٤). وبما أن الرسول ﷺ نوحُ عصره، وبما أن وحيه احتوى على رسالة كرسالة نوح، فقد ذكر الله تعالى هنا نوحًا ليلفت الأنظار إلى أن الشرع إذا كان لعنة فعليهم أن يكفُروا بنوح أيضًا الذي بدأ بواسطته نزول الشرع للنوع الإنساني، والذي كان من أتباعه نبيٌّ جليل القدر كإبراهيم. أما إذا لم يكن الشرع لعنة، بل ما زال المنكرون للشرع ينالون العقاب دائمًا – حيث لم يهلك في زمن نوح إلا الذين كفروا به ولم يفلح إلا الذين اهتدوا بهديه – فلن يفلح الآن أيضًا إلا الذين يؤمنون بمحمد رسول الله ﷺ، وليس لمعارضيه إلا الفشل والخسران.

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٩﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٨٠﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨٢﴾

شرح الكلمات:

نفَشتْ: نفشت الإبلُ أو الغنمُ: رعَتْ ليلاً بلا راعٍ (الأقرب).

الجبال: جمعُ الجبل، ويعني أيضًا: سيّدُ القوم وعالمُهم (الأقرب).

عاصفة: عصَفت الريحُ عصفًا: اشتدّتْ، فهي عاصفة (الأقرب).

التفسير: أي اذكروا داود وسليمان إذ يحكمان في قضية حرث أكلتْه غنمُ القوم.

يقول المفسرون أن الغنم أكلتْ حرثًا، فقضى داود بأن تعطى الغنم لصاحب الحرث. ولكن سليمان قال لا، ينبغي أن تُدفع الغنم إلى صاحب الزرع فينتفع منها، أما صاحب الغنم فيسقي الزرع إلى أن يعود كما كان، وعندها يسترد غنمه من صاحب الحرث. (الدر المنثور)

وعندي أنه إذا كان هذا حقًا فليس فيه ما يستوجب ذكره في القرآن. إن ما أراه هو أن الله تعالى قد بين هنا أنه كلما نال قوم نبي عزًّا يسعى الطامعون من بينهم لعرقلة النظام كما حصل في زمن داود وسليمان، ويبدأ أصحاب الطبائع البهيمية في أكل زرع الدين. يقول الله تعالى إننا فهّمْنا سليمان علاج ذلك، فحمى مملكته ونظامه من هجمات الشعوب المجاورة لبني إسرائيل والتي كانت تريد القضاء على حكمهم من خلال غارات مفاجئة.

مما لا شك فيه أن كلاً من سليمان وداود - عليهما السلام - قد نال الحكم والعلم، ولكن إستراتيجية سليمان بهذا الشأن كانت أفضل. فكان داود عليه السلام رجل حرب، وقد عاقب الظالمين المفسدين بعقوبات شديدة، بل إنه قد قتل ثلثي الرجال في بعض المناطق. ولكن الله تعالى فهّم سليمان أن الرفق بالجيران الآن سيخفف العداوة. فاستعان سليمان عليه السلام - عمومًا — بالمعاهدات، وهكذا حمى دولته من الجيران جميعًا.

بيد أن هناك حكمة أخرى في قوله تعالى ﴿ففهّمْناها سليمانَ﴾، وهي أن الكتّاب الإسرائيليين بل الأوروبيين أيضًا يرون أن إستراتيجية داود كانت جيدة ولكن سليمان اتبع إستراتيجية سيئة (The Dictionary of Bible p. 829-830). فالله تعالى قد فنّد هنا هذا الزعم فقال ﴿ففهّمْناها سليمانَ﴾.. أي أننا فهّمْنا سليمان حل تلك القضية على ما يرام. ولكن لما كانت هذه الجملة توهم وكأن الله تعالى لم يعلّم داودَ عليه السلام، فأزال الله تعالى هذه الشبهة بقوله تعالى: ﴿وكُلاً

آتيناحُكمًا وعلمًا﴾.. موضحًا أن تفهيمه تعالى لسليمان لا يعني أن داود كان مخطئًا في موقفه، وإنما قصد بذلك تبرئة ساحة سليمان من تهمة كان يُرمى بها.

ثم يقول الله تعالى ﴿وسخّرْنا مع داود الجبالَ يسبِّحنَ والطيرَ وكنّا فاعلين﴾. وقد ذُكر معنى مماثل لهذا في سور أخرى أيضًا حيث ورد ﴿ولقد آتينا داودَ منا فضلاً يا جبالُ أَوِّبي معه والطيرَ وأَلَنَّا لـــه الحديدَ * أنِ اعمَلْ سابغاتٍ وقدِّرْ في السَّرْد واعمَلوا صالحًا إني بما تعملون بصير﴾(سبأ: ١١-١٢). وقوله تعالى ﴿يا جبال أوّبي معه والطيرَ﴾ يعني أننا قلنا للجبال أن تمشي معه وكذلك أمرنا الطير أن تكون معه.

كذلك ورد في مكان آخر ﴿ولقد آتينا داودَ وسليمانَ علمًا وقالا الحمدُ لله الذي فضّلَنا على كثير من عباده المؤمنين * وورِث سليمانُ داودَ وقال يا أيها الناس عُلِّمْنا منطقَ الطيرِ وأُوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين * وحُشر لسليمانَ جنودُه من الجن والإنس والطير فهم يوزَعون﴾(النمل: ١٦-١٨).

ثم ورد في مكان آخر ﴿واذْكُرْ عبْدَنا داودَ ذا الأيد إنه أوّابٌ * إنّا سخّرْنا الجبالَ معه يسبّحنَ بالعشي والإشراق * والطيرَ محشورةً كلٌّ لـــه أوّابٌ﴾(ص: ١٨-٢٠). وقوله تعالى ﴿ذا الأيدِ إنه أوّاب﴾ يعني أنه كان صاحب قوة، وكان كثير الرجوع إلينا.

لقد قال المفسرون بناء على هذه الآية أن داود وسليمان- عليهما السلام- كانا يملكان التصرف في الجبال والجن والطير، وأنها كلها كانت تذكر الله تعالى مع داود. فكلما قال "سبحان الله" رددت وراءه الجبال والطير والجن والحيوانات "سبحان الله". وذلك كما يفعل بعض الوعّاظ الكشميريين عندنا حيث يقول للحضور خلال الوعظ بعد فترة وأخرى "صلُّوا على النبي"، وذلك ليستريح قليلاً. فكأن داود عليه السلام أيضًا كلما شعر بالتعب خلال ذكر الله تعالى قال لجبل همليا مثلاً سبِّحْ أنت يا همليا، فكان يقول سبحان الله، سبحان الله، وبعدما شعر ببعض الراحة قال لهمليا: اسكُتِ الآن، حتى أقوم أنا بالتسبيح.

وقال بعض المفسرين الآخرين أي غرابة في تسبيح الجبال وغيرها، فإنها كانت تركع وتسجد أيضًا. فكلما سجد داود عليه السلام سجدت معه الجبال والطير والحيوانات، وإذا ركع ركعت معه جميعًا.

أما البعض الآخر فقال لا متعة في هذا التفسير أيضًا، بل الحق أن الجبال كانت تسير مع داود حيثما سار. كان داود في الشام، وكانت جبال هملايا وشوالك والألب تمشي وراءه حيثما ذهب! كما كانت الطيور أيضًا تسبح معه. فلم تكن العصافير في تلك الأيام تغرد بل كانت تسبّح، ولم تكن الغنم تثغو، بل تسبح وتدعو. ويجب أن لا يسأل أحد كيف صارت الغنم طيرًا، إذ يكفي أن التفاسير تقول هكذا. كان زمنًا عجيبًا حقًّا!

كذلك ورد أن الله تعالى أنعم على سليمان عليه السلام بنعمة أخرى إذ جعل الجن في قبضته، فكانوا يعملون وفق إشارته. وكلما سار أظلّت له الطيور بأجنحتها. ويقول هؤلاء المفسرون أن داود كان كثير الشك، فكلما خرج من بيته غلّق على زوجاته الأبواب. وذات مرة عاد فوجد وسط الدار رجلاً قويًّا يمشي هنا وهناك، فغضب غضبًا شديدًا، وقال لـــه: ألا تستحي؟ كيف دخلت في حرمي والأبواب مغلقة؟ قال: أنا ذلك الذي لا يحتاج إلى الأبواب؟ قال أنت إذًا ملَك الموت؟ قال نعم. فقبض روح داود. ولما أرادوا دفن داود حلّقت الطيور كلها فوقه تظلّه بأجنحتها.

ويقول المفسرون أن سليمان كان يعلَم منطق الطيور كلها. ولكن حين سئلوا هل كان يعلم لغة الحيوانات أم لا؟ قالوا كان يعلم لغاتها أيضًا، ولكن القرآن اكتفى بذكر منطق الطير على سبيل الإيجاز.

ويقال أنه ذات مرة انقطع المطر مدة طويلة، فطلب الناس من سليمان عليه السلام أن يخرج ويصلي صلاة الاستسقاء. فقال لا تراعوا، فإن المطر نازل لأن نملة كانت تدعو الله تعالى مقلوبةً على ظهرها وتقول رب إذا لم ينـــزل المطر فسوف نموت (انظر تفسير ابن كثير، والقرطبي).

لقد اضطر المفسرون لنسج هذه القصص نتيجة فشلهم في فهم الاستعارات القرآنية، في حين أن المعنى واضح تمامًا. فأين الحاجة لمثل هذه القصص حول قول

تعالى ﴿وسخّرنا مع داود الجبال يسبّحنَ﴾؟ ذلك لأنه إذا كان الله تعالى قد ذكر هنا تسخيره الجبال لداود عليه السلام فإنه تعالى قد قال في حقنا أيضًا ﴿اللهُ الذي سخّر لكم البحر لتجري الفُلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وسخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾(الجاثية: ١٣-١٤). فقد أوضحت هذه الآية تمامًا ما هو المراد من تسخير الجبال لداود عليه السلام، إذ قد صرح الله تعالى هنا أنه ليس الجبال وحدها بل كل شيء في السماوات والأرض من نهر وبحر وجبل وما إلى ذلك مسخرٌ لجميع الناس بما فيهم المؤمنون بمحمد رسول الله ﷺ والكافرون والمنافقون. أوليس عجيبًا أن الجبال مسخرة لي أيضًا، ومع ذلك لا تسير معي حتى حجر واحد من هملايا مثلاً، بينما كان الجبل كله يسير مع داود عليه السلام! فإذا كان هذا قد حدث مع داود عليه السلام في الحقيقة فيجب أن يحصل معنا أيضًا، وإذا كان لا يحصل معنا فثبت أنه لم يحصل مع داود عليه السلام أيضًا.

أما فيما يتعلق بالتسبيح فقد يقول قائل إن القرآن الكريم يذكر أن الجبال والطير كانت تسبح مع داود عليه السلام، فهل هي تسبح الآن أيضًا؟ وقد أجاب الله تعالى على هذا في سورة الجمعة حيث قال ﴿يسبّح لله ما في السماوات وما في الأرض الملكِ القدّوسِ العزيزِ الحكيمِ﴾(الآية: ٢). فقد أكد الله تعالى هنا أن كل شيء في الكون يقوم بتسبيحه، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والشجر والأوراق كلها تسبحه. كما أن ثمر المانجو والموز- وحتى قشره الذي ترميه- والخبز، والصينية كل أولئك تسبح الله تعالى. وعندما تشرب الشاي فشفتاك والشاي والسكر والفنجانُ كلها تسبّح. ثم إن دارك وسقفه وجدرانه وأبوابه تسبّح الله تعالى. وكذلك عندما تنام فإن سريرك ورداءك ولحافك كل أولئك تسبّح. وما دام كل ما في الكون يسبح لله تعالى فلم يخترعون معنى غريبًا حين يُذكر تسبيح بعض الأشياء مع داود عليه السلام؟ مع أن الأمرين، أي التسخير والتسبيح، اللذين جاء ذكرهما في حق داود قد أكدهما الله تعالى في حقنا أيضًا، فقال إن كل شيء مسخر لكم، وأن كل شيء يسبّح لنا في عصركم أيضًا.

بل هناك أكثر من ذلك، فإن الله تعالى قد قال عن داود عليه السلام إن الجبال كانت تسبح معه، بينما قال في حقنا إن كل ما في السماوات والأرض يسبح لله تعالى. ذلك لأن تسبيح كل شيء يعني أنه يشكل في حد ذاته برهاناً على أن الله تعالى بريء من كل عيب. وبما أن الإسلام جاء ليزيل عيوب العالم كله فقد أخبر الله المسلمين أن كل ما في السماوات والأرض يسبح لله تعالى. وأما داود عليه السلام فبما أنه بُعث لكي يزيل عيوب الجبال أي أهل الجبال وحدهم، ولم يكن مبعوثًا إلى العالم كله وإنما إلى منطقة محدودة، لذلك سبحت معه الجبال فقط. أما محمد رسول الله ﷺ فكان مبعوثًا للدنيا كلها لذلك قال "جُعلتْ لي الأرضُ مسجدًا" (البخاري: الصلاة، باب قول النبي ﷺ جُعلتْ لي الأرض مسجدًا).. أي لا يوجد حتى شبر واحد من الأرض لا يقوم بتسبيح الله تعالى، فكل مكان نذهب إليه يصير مسجدًا. إذًا فيما يخص داود فموضوع تسبيح الأشياء محصور في الجبال فحسب لكونه عليه السلام مبعوثًا إلى أمة محدودة من أهل الجبال، أما فيما يتعلق بمحمد رسول الله ﷺ فجُعل الموضوع شاملاً لكل ما في الكون لكونه ﷺ مبعوثًا إلى كل ما في السماوات والأرض.

أما استدلالهم بلفظ ﴿أوِّبي معه﴾ بأن الجبال كانت تشترك مع داود عليه السلام في التسبيح، فالرد عليه أن كل ذرة في الكون تشترك في التسبيح بفضل بعثة محمد رسول الله ﷺ أيضًا.

ولو قال قائل: فأين خصوصية داود عليه السلام في ذلك إذًا؟ فليكن معلومًا أنه ليس لداود أي خصوصية في تسخير الجبال لـــه، إذ الثابت من القرآن الكريم أن كل ما في السماوات والأرض مسخر للناس جميعًا؛ ولكن حينما يجعل الله أحدًا ملكًا على بلد فإنه يصير فيه أعظم مكانة من المواطنين الآخرين. فبرغم أنه لا فرق بين داود عليه السلام وغيره من الناس فيما يتعلق بتسخير كل ما في السماوات الأرض، إلا أنه يتمتع بخصوصية بدون شك، وهي أن الله تعالى قد جعله ملكًا أيضًا، وهكذا فرغم كون الجميع متساوين في هذا التسخير إلا أنه كانت لـــداود عليه السلام عظمة وخصوصية لم توجد عند الآخرين.

أما الآن فأبين لكم على ضوء اللغة أن لقوله تعالى ﴿وسخّرنا مع داود الجبال يسبِّحنَ﴾ مفهومًا آخر أيضًا. لقد ورد في القواميس أن الجبل يعني سيد القوم أيضًا. وعليه فتسخير الجبال لداود عليه السلام يعني أنه كان أول ملك لليهود انتصر على القبائل المجاورة فصار ملوكها وأسيادها تابعين لـــه، إذ لم يوجد قبل داود عليه السلام ملكٌ لليهود حكم الشعوب الأخرى بالإضافة إلى قومه، وأخضع الملوك المجاورين له....

أما الطير فلم يذكر القرآن أنها كانت تسبح مع داود عليه السلام، ولكن البعض وقع في الخطأ لجهله بقاعدة بسيطة في اللغة العربية، فظن أن الطيور أيضًا كانت تسبح مع الجبال.

إن كل ما ورد في القرآن الكريم بهذا الصدد هو كالآتي:

أولاً: قال الله تعالى ﴿وسخّرْنا مع داودَ الجبالَ يسبِّحنَ والطيرَ﴾. و﴿الطير﴾ هنا منصوب بفعل ﴿سخّرْنا﴾، والمعنى أننا سخرنا مع داود الجبال التي كانت تقوم بالتسبيح، كما سخرنا معه الطيرَ. فليس هنا أي ذكر لتسبيح الطير كما ترى، بل غاية ما يمكن نؤول به هذه الجملة هو أنه كان عند داود عليه السلام علمٌ ومهارة في استعمال الطيور في بعض الأعمال كاستخدام الحمائم لنقل الرسائل مثلاً. إذًا فتقدير ﴿والطيرَ﴾ هو: "وسخّرنا الطيرَ"، إذ ليست الطير فاعلاً لفعل ﴿يسبّحنَ﴾.

ثانيًا: يقول الله تعالى ﴿إنا سخّرنا الجبالَ معه يسبّحن بالعشي والإشراق* والطيرَ محشورةً﴾(ص: ١٩-٢٠). وهنا أيضًا لفظ ﴿الطيرَ﴾ منصوب بفعل ﴿سخّرنا﴾.

ثالثًا: قال الله تعالى ﴿ولقد آتينا داودَ منّا فضلاً يا جبالُ أوِّبي معه والطيرَ﴾(سبأ: ١١). وهنا أيضًا لفظ ﴿والطيرَ﴾ تقديره: وآتيناه الطيرَ أيضًا.

فترى هنا أيضًا أن الله تعالى لم يقل أن الطير كانت تسبح مع داود، بل قال أننا آتيناه الطير.

فمجمل القول إن ﴿الطير﴾ منصوب بفعل ﴿سخّرْنا﴾ أو ﴿آتينا﴾، و لم يقل الله تعالى قط أن الطير كانت تسبح مع داود عليه السلام.

بيد أنني أقول إنهم حتى ولو فسروا هذه الجملة بأن الطيور كانت تسبّح مع داود فأي غرابة في تسبيحها معه خاصة وأن الله تعالى يخبرنا أن كل شيء في السماوات والأرض يسبح له ﷻ؟ إنني أتعجب دائمًا من مشايخ المسلمين في هذه الأيام، فإنهم كلما جاءت آية تتحدث عن داود أو سليمان أو عيسى - عليهم السلام - فسروها بمعنى، وإذا ما وردت آية مماثلة تمامًا تتحدث عن محمد رسول الله ﷺ يفسرونها بمعنى آخر. فمثلاً إذا قال الله تعالى عن داود عليه السلام إن الجبال كانت تسبح معه قالوا إن الجبال كانت بالفعل تقول معه "سبحان الله، سبحان الله"، أما إذا قال الله تعالى إننا سخّرنا السماوات والأرض لمحمد رسول الله ﷺ فيقولون إنما هو تشبيه ومجاز فحسب. وكذلك إذا قال الله تعالى عن الرسول ﷺ إنه قد أحيا الأموات قالوا إنما المراد هنا الموتى الروحانيون، أما إذا وردت مثل هذه الكلمة في حق عيسى عليه السلام فيقول بكل إصرار وعناد أن معنى ذلك أن عيسى قد نفخ في مناخير هؤلاء الموتى وأحياهم فعلاً!

تعالوا نر الآن هل في القرآن الكريم أية إشارة حول الطير أم لا؟

إن التدبر في القرآن يكشف لنا أن الطير أنواع. يقول الله تعالى ﴿وما من دابّة في الأرض ولا طائرٍ يطير بجناحيه إلا أممٌ أمثالُكم﴾(الأنعام: ٣٩). فترى أن الله تعالى وصف هذا الطير بأنه ﴿يطير بجناحيه﴾؛ مما يعني أن هناك طيرًا آخر يطير بغير أجنحة.

ثم هناك آية أوضح من ذلك ونعرف منها بكل وضوح أن الطير المذكور هنا اسم لشيء آخر فعلاً. قال الله تعالى ﴿ألم تر أن الله يسبّح لـــه مَن في السماوات والأرضِ والطيرُ صافّاتٍ كلٌّ قد علِم صلاتَه وتسبيحَه واللهُ عليم بما يفعلون﴾(النور: ٤٢).. أي ألم تعلم أن كل ذوي العقول الموجودة في السماوات والأرض يسبحون لله تعالى، وأن الطيور كذلك تصلّي لله تعالى في صفوف، وأن كل فريق من هؤلاء المذكورين قد علمت طريق صلاته وتسبيحه، وأن الله تعالى يعلم كل ما يفعله ذوو العقول هؤلاء.

هناك ثلاثة أدلة في هذه الآية على أن الطير هنا لا يعني الطيور المعروفة.

الأول: أن لفظ ﴿مَن﴾ الذي يُستخدم دائمًا لذوي العقول لا لغيرهم.

والثاني: والجدير بالتدبر أن الله تعالى قد أخرج هنا الطير وحدها من بين كل ﴿مَن في السماوات والأرض﴾؟ لِمَ لم يذكر هنا الجنَّ وغيرهم من المخلوقات ذكرًا منفصلاً كما ذكر الطير على حدة؟

والثالث: قد قال الله تعالى هنا ﴿كلٌّ قد علِم صلاتَه وتسبيحَه﴾. فترى أننا لا نقرأ في القرآن الكريم كله أن الطيور أيضًا تصلي، ومع ذلك يقول الله تعالى هنا إن الطيور لا تسبح فحسب، بل إنها تعلَم الصلاة أيضًا، وأنها تصلّى في صفوف. فبالله عليك، هل رأيتَ الطيور تؤدي الصلاة في صفوف؟ هل في الدنيا أي طيور كهذه سوى المسلمين.

والرابع: أن الله تعالى قد استخدم هنا صيغة ذوي العقول مرة أخرى فقال ﴿والله عليم بما يفعلون﴾.

فثبت بذلك أن الحديث هنا يدور عن الناس وبالأخص عن أصحاب المراتب العليا الذين يصلّون جماعة.

لو قيل: إذا كان المراد من الطير هنا المؤمنون فلماذا سُمّوا طيرًا؟ فالجواب أن لفظ الطير يُطلَق في العربية على نتيجة عمل الإنسان أو القوة الفطرية المودَعة فيه. وقد بيّن القرآن الكريم هذا الأمر في أماكن أخرى أيضًا. قال الله تعالى ﴿فإذا جاءتهم الحسنةُ قالوا لنا هذه وإنْ تُصبْهم سيئةٌ يطّيّروا بموسى ومَن معه ألا إنما طائرُهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾(الأعراف: ١٣٢).. أي حينما أصيبوا بسرّاء قالوا هذا من حقنا، وإذا أصابتهم ضرّاء قالوا هذا بسبب سوء عمل موسى. فرد الله تعالى عليهم وقال ﴿إنما طائرُهم عند الله﴾؟ فهنا ترى أنهم لما قالوا إنما حل بنا العذاب بسبب موسى، ردّ الله تعالى عليهم بقوله ﴿إنما طائرُهم عند الله﴾، فما العلاقة بين الأمرين؟

عندما نبحث لذلك في القواميس تنكشف علينا الحقيقة، حيث ورد فيها أن الطائر يُطلَق على عمل الإنسان أيضًا (انظر أقرب الموارد). وهذا هو المراد في الآية

المذكورة أعلاه، حيث يقول الله تعالى إن أعمال هؤلاء القوم كلها محفوظة عندي، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

كذلك يقول الله تعالى في مكان آخر ﴿قالُوا اطَّيَّرْنَا بك وبمن معك قال طائرُكم عند الله بل أنتم قوم تُفتَنون﴾(النمل: ٤٨).. أي حينما بُعث إلى قوم ثمود نبيهم صالح عليه السلام أخذوا يقولون لـــه ولأصحابه إنما هلكنا بسبب سيئاتكم أنتم. وذلك كما قال معارضونا اليوم إن الطاعون وغيره من الأوبئة إنما تتفشى بسبب معاصي الميرزا*! فقال لـــهم نبيهم ﴿طائركم عند الله بل أنتم قوم تُفتَنون﴾.. أي أنكم قوم سيُبتلون بالعذاب من عند الله تعالى.

ثم ورد في سورة يس عن الثلاثة رسل قوله تعالى ﴿قالوا إنا تَطَيَّرْنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجُمنّكم وليَمَسّنكم منا عذاب أليم * قالوا طائركم معكم أئن ذُكِّرتم بل أنتم قوم مسرفون﴾(يس: ١٩-٢٠).. أي عندما جاء هؤلاء الرسل والمصلحون قومهم قالوا لهم لقد أصابنا بسببكم أذى كثير، وإن لم تنتهوا عما تقولون لنقتلكم رشقًا بالأحجار. فقال لهم رسلهم إنما طائركم معكم، وإن أعمالكم ستدمركم أنتم، ولن تضرنا شيئًا.

فترى أن لفظ "الطائر" قد ورد في كل هذه الأماكن من القرآن بمعنى القوة العملية ونتيجة العمل. والآن تعالوا نر ما هي حقيقة هذا اللفظ، وما علاقته بالإنسان.

وعندما نمعن النظر نجد في سورة بني إسرائيل - الإسراء - آية تقرّبنا جدًّا من المراد. قال الله تعالى ﴿وكُلَّ إنسان ألزمْناه طائرَه في عنقه ونُخرج لـــه يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا * اقرَأْ كتابَك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا * مَن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومَن ضلّ فإنما يَضلّ عليها ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولاً﴾(الإسراء: ١٤- ١٦).. أي أننا قد ربطنا في عنق كل

* أي مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية حضرة الميرزا غـــلام أحمـــد القاديـــاني عليه السلام. *(المترجم)*

إنسان طائرًا وسنُخرج لـــه سجل أعماله يوم القيامة مفتوحًا، ونقول لـــه اقرأ أنت ما فيه. نحن لا نحاسبك، بل أنت بنفسك تحاسب خيرك وشرك. من اهتدى فإنما يهتدي لصالحه، ومن ضل فلا يضر إلا نفسه. ولا يحمل أحد عبء غيره. ولا نعذب الناس حتى نبعث رسولاً.

لقد ذكر القرآن الكريم هنا معنى لطيفًا للطائر، مبينًا أن هناك طائرًا معلقًا في عنق كل إنسان. فما هو المراد من ذلك؟

يخبرنا الله تعالى هنا أن هناك طائرًا في عنق كل إنسان، ولكنا لا نرى أي طائر في عنق أي إنسان؛ فثبت جليًّا أن الطائر هنا يعني شيئًا آخر، وليس هو إلا القوة العملية أو نتيجة العمل. إذًا فكل عمل يقوم به المرء يتشكل بشكل الطائر، فإن عمِل الصالحات طارت به إلى أعالي السماء الروحانية كما تطير بنا الطائرة إلى جو السماء، وإن عمل السيئات فلا بد أن يضعف طائره، فيسقط به إلى الأرض بدلاً من أن يحلق به في السماء.

فترى أن القرآن يخبرنا من جهة أن الله تعالى قد ربط طائرًا بكل إنسان، وأنه إذا عمل صالحًا طار به طائره إلى الأعالي، وإذا عمل سيئًا سقط به إلى الأرض؛ ومن جهة أخرى نجد النبي ﷺ يذكر هذا المعنى نفسه بقوله "كلُّ مولود يولَد على الفطرة، فأبَواه يهوِّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه" (البخاري: الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين).. أي أن الله تعالى قد زوّد كل طفل بقوى الرقي.. وبتعبير آخر، إنه تعالى قد زود كل إنسان بقوة الطيران. وهذا هو المعنى المذكور في قوله تعالى ﴿وكلَّ إنسان ألزمناه طائرَه﴾.. أنه عند ولادة كل طفل يولد معه طائره أيضًا، ولكن أبواه يخنقون طائره أحيانًا، أما الذين ينجو طائرهم من الخنق فيكون لهم حال أخرى، حيث لا يزال هؤلاء الطيور الإنسانية.. أي الأناس الصالحون، لا يزال طيرهم .. أي كفاءتهم.. في الترقي والتقدم نتيجة أعمالهم الحسنة.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم عن الملائكة ﴿الحمد لله فاطرِ السماوات والأرضِ جاعلِ الملائكةِ رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاثَ ورُباعَ﴾(فاطر:٢). ثم يتحدث سبحانه وتعالى عن الناس فيقول ﴿مَن كان يريد العزّةَ فللّهِ العزّةُ جميعًا إليه

يصعَد الكَلِمُ الطيّبُ والعملُ الصالحُ يرفَعه والذين يمكُرون السيّئاتِ لهم عذابٌ شديد ومكرُ أولئك هو يبُور﴾(فاطر: ١١).. أي لقد علمتم، أيها الناس، أننا قد جعلنا للملائكة أجنحة عديدة للرقي، وتذكروا أن عندكم فرصًا كثيرة للرقي، بل بإمكانكم أن تسبقوا الملائكة أيضًا. واعلموا أن العزة كلها بيد الله تعالى، وإليه تصعد الأرواح الصادقة الطيبة، بمعنى أن الذين يدخل فيهم كلام الله تعالى هم الذين يحرزون الرقي. ولكن هذا لا يتأتى من فراغ، بل ﴿العمل الصالح يرفعه﴾.. أي أن هذا بحاجة إلى العمل الصالح من الإنسان. وكأن الكلم الطيب طير، ولكنه لا يطير بنفسه، بل يصعد بمساعدة الأعمال الصالحة، وهكذا يصبح لـــه جناحان يحلّق بهما في جو السماء الروحانية.

ثم إننا نرى أن للطير خصوصيتين، أولهما أنها تصعد إلى فوق، بمعنى أنها تطير في أعالي الجو، وثانيتهما أن وكرها يكون في مكان عال إلا ما شذ وندر. فالطيور التي تعيش في الأوكار تصنع بيوتها في فروع الأشجار، أما التي لا تتخذ الأوكار فهي أيضًا تبيت على الأشجار لا على الأرض.

وقد وُصف المؤمنون أيضًا بهاتين الميزتين، قال الله تعالى ﴿وإذا قيل انشُزوا فانشُزوا يرفَعِ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلمَ درجاتٍ والله بما تعمَلون خبير﴾(المجادلة: ١٢).. أيها المؤمنون، إذا قيل لكم هُبُّوا فعليكم أن تهبوا فورًا ملبين نداء النبي أو الخليفة، وتكون النتيجة أن الله تعالى سيرفع المؤمنين منكم. فترى أن هذه الآية قد ذكرت هنا خاصية المؤمنين بالطيران عاليًا.

والخاصية الثانية للطيور أنها تتخذ لها الأوكار في الأماكن العالية دائمًا، وقد أكد القرآن وجود هذه الصفة أيضًا في المؤمنين. قال الله تعالى ﴿في بيوت أَذِنَ اللهُ أن تُرفَع ويُذكَر فيها اسمُه يسبّح لـــه فيها بالغدوّ والآصال * رجال لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بَيعٌ عن ذكرِ الله وإقامِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة﴾(النور: ٣٧-٣٨).. أي هذا النور موجود في بعض البيوت التي قد أمرْنا بأن تُرفع، والتي يُذكر فيها اسم الله صباحًا ومساءً. ولكن ليس قصدنا بذلك أن نرفع تلك البيوت، وإنما نريد أن نرفع رجالاً يسكنون فيها.

وهذا يعني أن الله تعالى قد أكد هنا اتصاف المؤمنين بالخصلتين الموجودتين في الطيور، مبينًا أن العمل الصالح يطير بالمؤمنين إلى الله تعالى. وقد ورد في الحديث أن المؤمن إذا مات أخذت الملائكة روحه إلى السماوات، وتقول افتحوا أبوابها لروح المؤمن، وإذا مات الكافر فلا تُرفع روحه، بل يُلقى بها إلى الأسفل. (انظر ابن ماجة، كتاب الزهد: رقم الحديث ٤٢٥٢)

إذًا فالطير هنا تعني تلك الأرواح الراقية ذوات الهمم العالية، والجاهزة للصعود على القمم بكل أنواعها، غير خائفة من الصعاب، ولا هيّابة من المصائب، باذلةً التضحيات من كل نوع. فذات مرة قام أحد الصحابة أمام النبي ﷺ وقال يا رسول الله، والله لو أمرتَنا أن نخوض البحر بخيلنا لخضناه، ولن نسألك عن حكمة ذلك (مسلم: كتاب الجهاد، باب غزوة بدر). فكأن الله تعالى قد سمى المؤمنين طيرًا إشارة إلى ما فيهم من مؤهلات سامية، مبينًا أن المؤمن يؤثر الحياة العلوية على الحياة السفْلية، ويطير إلى الأعالي بدلاً من أن يُخلد إلى الأرض.

ولهذه الحكمة نفسها قد سُمِّي الذين آمنوا بداود عليه السلام طيرًا، حيث بين الله تعالى أنهم كانوا من الذين كانوا يطيرون إلى سماء الروحانية، وكانوا مزودين بكفاءات روحانية مميزة، وكانوا بعيدين كل البعد عن الحياة السفلية.

ثم يقول الله تعالى بعد ذلك ﴿وعلّمْناه صنعةَ لَبوسٍ لكم لتُحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون * ولسليمانَ الريحَ عاصفةً تجري بأمره إلى الأرض التي باركْنا فيها وكنّا بكل شيء عالمين﴾.. أي علّمْنا داودَ فنّ صنع الدروع حمايةً لقومه في الحروب. كما أنعمنا على سليمان بالرياح التي كانت تجري بأسطوله البحري في مختلف الجهات بما فيها مناطق الشام وفلسطين.

يتضح من الموسوعة التوراتية أن سليمان عليه السلام كان يبعث أسطوله من خليج العقبة إلى شرق الجزيرة العربية لجلب الذهب، وكان ينتفع به انتفاعًا عظيمًا (مجلد ٤ ص ٤٦٨٥)

وليكن معلومًا أن ضمير الغائب في قوله تعالى ﴿تجري بأمره﴾ يمكن أن يعود إلى الله تعالى وإلى سليمان عليه السلام كذلك. وإذا كان عائدًا إلى سليمان فقوله ﴿بأمره﴾ لا

يعني أنها كانت تجري بأمر من سليمان، بل المعنى أنها كانت تجري من أجل أعماله ومنافعه.

وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

شرح الكلمات:

الشياطين: شطَنت البئرُ: صارت عميقة. والشيطان: كلُّ عاتٍ متمرد (الأقرب). فالمراد من الشياطين هنا الغوّاصون في عمق البحر من الشعوب الكافرة الخاضعة لسليمان.

التفسير: يخبرنا الله تعالى هنا أننا أخضعنا لسليمان عديدًا من المتمردين، فكانوا يغوصون في البحر ويعملون لـــه أعمالاً شتى، وكنا نحفظهم بتدبير منا.

لقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات أوّلاً داود عليه السلام الذي كان لـــه مملكة عظيمة في عصره، ثم ذكر بعده سليمانَ. وفي عصر القرآن الكريم كان الرسول ﷺ هو داود الحقيقي الذي حارب أعداءه فعلاً، كما عمل على تجهيز الأسلحة. أما سليمان فيشبهه مِن هذه الأمة بنو عباس وبنو أمية بمملكتهم، حيث كثر المال والثراء في عهدهم بشكل كبير. فقد ورد في التاريخ عن الخليفة العباسي المأمون الرشيد أنه زار مصر مرة. وكان من عادته أن يبيت ليلة في كل قرية يمر بها. فبلغ قرية اسمها طاء النمل، ولكن لم يَطِبْ له المبيت فيها، فقرر الارتحال منها. فجاءته عجوز من عائلة شريفة والتمست منه أن يبيت في تلك القرية، فرضي المأمون بقولها. فأعدّت العجوز للمأمون ورفقائه وليمة رائعة، كما قدمت له لدى انصرافه عشرة أكياس مليئة بالدنانير هديةً لـــه. كان المأمون معجبًا من مأدبتها، فازداد عجبًا برؤية الأكياس المليئة بالدنانير، واعتذر عن قبولها. فقالت لـــه العجوز، أيها الملك المعظم، هذا ليس بشيء. إن هذا الذهب يخرج من أرض قريتنا، ولا يزال

عندي الكثير منه. فتقبلها المأمون بانشراح. (أقوم المسالك في أحوال الممالك ص ١٣٧، نقلاً عن مجلة تهذيب الأخلاق مجلد ٣ ص ١٤٢)

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٥﴾

شرح الكلمات:

الضُّرُّ: ضدُّ النفعِ؛ سوءُ الحال والشدةُ (الأقرب).

التفسير: بعد داود وسليمان عليهما السلام ذكر الله تعالى أيوب عليه السلام الذي قضى كل عمره في المحن. ولربما يكون عليّ رضي الله عنه أشبه الناس بأيوب في العصر النبوي. أما في عصر المسيح الموعود عليه السلام فلا يزال الأمر بمنـــزلة نبوءة ستتجلى في حينها.

أما أحوال أيوب عليه السلام فقد ألقت عليها الضوء طوائف مختلفة: المسلمون والنصارى وكذلك المؤرخون اليهود الذين يكتبون التاريخ على ضوء الدين. وما قاله المسلمون عن أيوب عليه السلام فهو كالآتي:

هو أيوب بن أموص بن تارح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم. وكانت أمه من وُلد لوط بن هاران.

علمًا أن عيص، الذي هو والد الجد الأكبر لأيوب، قد اختُصر اسمه – على الأغلب – من عيسو الذي كان أحد أبناء إسحاق عليه السلام بحسب العهد القديم (التكوين ٢٥: ٢٦).

ويقول المؤرخون المسلمون إن الله تعالى قد بسط الدنيا لأيوب، وكانت أراضي الشام والبلاد المجاورة لها ملكًا لـــه، وكان لـــه من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يُعَدّ ولا يحصى. وكان لـــه خمسُ مائةِ فدانٍ يتبَعها خمسُ مائةِ عبدٍ.

وكان الله تعالى قد أعطاه أهلاً وولدًا بكثرة. ومع ذلك كان بارًّا تقيًّا، رحيمًا بالمساكين يُطعمهم، ويكفل الأيتام والأرامل، ويكرم الضيف. وقد فشل الشيطان في محاولاته لإغوائه. لقد آمن به ثلاثة من أهل اليمن. وكان إبليس في زمنه يسترق أخبار السماء – علمًا أن المفسرين عندنا يقولون هذا عن كل نبي – وفي أحد الأيام صلى أيوب على نبينا ﷺ بكل حرارة وإخلاص، فردت عليه الملائكة بالصلاة؛ وأثنى الله عليه ثناء كبيرًا. فحسده إبليس فحضر وقال لله تعالى إلهي إن عبدك أيوب بارٌّ لأنك وهبت لـــه نعمًا كثيرة، ولو ابتليتَه وأخذتَ منه ما أعطيته من النعم لخرج من طاعتك. فقال الله لـــه انطلِقْ فقد سلّطتُك على ماله. فهلك كل ما لدى أيوب من المال، فحمد أيوب ربه أيضًا. فذهب الشيطان إلى ربه وقال إنه شاكر لك لأنك أعطيته الصحّة. فقال الله تعالى انطلق فقد سلّطتُك على جسده أيضًا، ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه وعقله. فأُصيبَ أيوب بحكّة شديدة، وتغير جسمه وأنتن وتولدت الديدان في جروحه. فأخرجه أهل القرية منها، فاتخذ لـــه عريشًا حيث خدمته زوجته واسمها رحمة. وإن الثلاثة الذين آمنوا به أيضًا خذلوه. ولبث في هذه المحن ثماني عشرة سنة عند البعض، وثلاث سنوات عند البعض الآخر، وسبع سنوات عند الآخرين. ولم يقترب منه في تلك الفترة إلا زوجته التي كانت تحضر لـــه الطعام. فكانت تشترك مع زوجها في ذكر الله تعالى. فتضايق الشيطان وقال في نفسه إن زوجة آدم أيضًا قد أُغويت، فلم لا أغوي زوجة أيوب. فذهب إليها، فآتاها ولد شاة وقال لها ليذبحْ أيوب هذا باسمي ليُشفَى. فذكرتْ ذلك لزوجها، فنهرها وقال كيف انخدعتِ بعدو الله هذا؟ لقد تمتعنا بنعم الله طويلاً، فهلا صبرنا على المصائب بضع سنين؟ ثم حلف وقال والله لئن شفاني الله لأجلدنّكِ مئة جلدة. ثم طرد زوجته من عنده وقال لن أذبح باسم أحد سوى الله تعالى. ثم دعا ربه ﴿أَنِّي مسَّنِي الضرُّ وأنت أرحمُ الراحمين﴾. فقال لـــه ربه يا أيوب لقد استجبنا لك. فقم واركُل الأرض برجلك، فركلها برجله، فنبعت عين ماء، فاغتسل منها، فزال مرضه نهائيًّا، وعاد إليه شبابه وجماله. ثم ضرب برجله ثانية، فنبعت عين ماء أخرى، فشرب منها، فلم يبق في جوفه داء. ثم إن امرأته قالت في

نفسها لا بأس إن كان زوجي قد طردني على خطئي. عليّ أن أرجع إليه وإلا فسيموت جوعًا. فرجعت ولم تجده في مكانه. فجعلت تبكي وتبحث عنه في كل مكان حتى وجدته. وأبرّ أيوب يمينه بأن أخذ ضغثًا فيه مئة عود، فضرب به زوجته ضربة واحدة (انظر تفسير الخازن).

لقد أُعجب الناس بهذه القصة إعجابًا شديدًا حتى نجدها في تاريخ الهندوس أيضًا بالإضافة إلى تاريخ اليهود، وإن كانوا قد غيّروا الأسماء في بعض الأماكن.

هناك كتاب مستقل لأيوب في العهد القديم، لـــه ٢٤ إصحاحًا. وقد ورد في هامشه أن أيوب جاء قبل المسيح بحوالي ١٥٢٠ عامًا.. أي قبل موسى بقرنين تقريبًا.

ويرى الباحثون العرب أن أيوب كان نبيًّا غير إسرائيلي، لأنه كان من نسل عيسو الذي كان الأخ الأكبر لإسرائيل (يعقوب) عليه السلام. وكان من سكّان عَوص التي كانت مدينة لآخر السيدين (Sidon)، وكانت تقع بين الشام وخليج العقبة. (الموسوعة اليهودية مجلد ٧: Job)

ولكني أرى أن هذا غلط. ذلك لأن أهل هذه المنطقة كانوا يعادون بني إسرائيل عداء شديدًا. وسبب هذا العداء أنهم لم يسمحوا لبني إسرائيل بالمرور بأرضهم ليصلوا إلى كنعان؛ فكان بنو إسرائيل يحاربونهم دائمًا، ولم يحصل بينهم أي صلح إلا لفترة وجيزة حين اتحد هذان الشعبان لصد هجمات الآشوريين. لذا فإنه خلاف العقل أن يذكر بنو إسرائيل في العهد القديم واقعة رجل صالح من قبيلة معادية غاضين الطرف عن باقي وقائع أهل الدنيا؟

إن الباحثين مجمعون على أن اللغة المستخدمة في سِفر أيوب ترجع إلى ما بين القرنين التاسع والرابع قبل الميلاد، وهي الفترة التي قد تم فيها أسر اليهود على يد نبوخذنصر وتشتيتهم في المناطق القريبة من الهند. ومن ناحية أخرى نجد عند الهندوس أيضًا واقعة مماثلة جدًّا حول شخصية اسمها هريش تشندر؛ وليس من المستبعد أن يكون اليهود قد أخذوا هذه القصة من هؤلاء. والدليل على ذلك موجود في سِفر أيوب نفسه، حيث ورد فيه أن الشيطان حضر البلاطَ الإلهي.

والواضح أن فكرة مجيء الشيطان في جناب الله تعالى ليست لليهود ولا الشعوب المجاورة لهم، وإنما هي فكرة هندوسية محضة حيث يرى الهندوس أن الأرواح الخيّرة والشريرة تأتي عند الله تعالى، ويجري بينهما حوار طويل.

على كل حال، قد ورد في سفر أيوب إصحاح ١ أنه كان في أرض عَوصَ رجلٌ اسمه أيوب. وكان بارًّا وتقيًّا جدًّا. وكان لـــه سبعة بنين وثلاث بنات. وكانت عنده سبعة آلاف من الغنم، وثلاثة آلاف من الإبل، وخمس مئة زوج من البقر، وخمس مئة من الأتان، وخدم كثيرون. ولم يكن مثله في الشرق مالاً. وكان بنوه أيضًا أثرياء جدًّا. ولما شبّ بنوه قدّم القرابين عن بنيه لكي يُغفر لهم إن كانت لهم بعض الخطايا.

وذات يوم حضرت الملائكة أمام ربهم، وجاء الشيطان أيضًا في وسطهم. فقال الله تعالى للشيطان: من أين جئتَ؟ وهل رأيت عبدي أيوب؟ قال جئتُ بعد أن كنتُ أتجول وأتمشى في الأرض، وقد رأيتُ عبدك أيوب أيضًا. صحيح أن أيوب بارّ، ولكن هل مجّانًا يتقى ربَّه؟ إنما يتقيك لأنك قد أسبغتَ عليه النعم. انزعْ منه النعم ثم انظر كيف يجدّف عليك؟ فقال الله للشيطان دَمِّرْ مالَه كله كما شئتَ، ولكن لا تمسّ جسمه.

ثم حدث أن أعداءه شنّوا الغارة على خدمه وقتلوهم. ثم سقط البرق من السماء وأحرق غلمانه وماله. كما أخبره البعض أن الأعداء قد أخذوا أبناءه أسرى.*

فمزّق أيوبُ جبّتَه وأخذ يبكي، ثم سجد وقال: عريانًا خرجتُ من بطن أمي وعريانًا أعود إلى هناك. ولكنه رغم كل هذه المصائب لم يتهم الله بشيء.

أما الإصحاح الثاني فقد ورد فيه أن الشيطان جاء ثانية وسط الملائكة للمثول بين يدي الله تعالى، فقال تعالى ألم تر أن عبدي أيوب لا يزال جد شاكرٍ لي؟ فقال الشيطان إن الإنسان يضحي لنفسه بكل ما يملك، ولكن ينبغي أن تضره في جسمه

* ورد في المصدر المشار إليه أن أبناء أيوب عليه السلام ماتوا نتيجة ســقوط البيــت علــيهم. *(المترجم)*

وعظامه، ثم انظر هل يشكرك بعد ذلك؟ قال الله تعالى لـــه: لك أن تصيبه في صحته، ولكن لا تهلكه. فأصاب الشيطان أيوب بمرض في جلده، فخرجت البثور على جسده من أخمص قدمه إلى قمة رأسه. فقالت لـــه زوجته: اتركْ هذا الشكرَ وجدِّفْ على الله تعالى، ومُتْ. فرفض أيوب قولها وقال كيف يصح أن نتلقى من الله تعالى نعمه ولا نبذل في سبيله شيئًا. ثم جاءه مريدوه الثلاثة من الأماكن النائية وأخذوا يبكون بكاء شديدًا.

وورد في الإصحاح الثالث أن أيوب لما رأى أن هناك مؤامرة لكي ينحرف هو إلى السيئة لعن يوم ولادته.

وجاء في الإصحاح الرابع أن أحدًا من مريديه قال لـــه إن عذاب الله إنما ينـــزل بأعدائه وليس بالصالحين، فلا بد أن تكون فيك سيئة ما.

وجاء في الإصحاح الخامس أنه رد على مريده هذا أن العقاب ينـــزل نتيجة السيئات، وعلى الإنسان أن يسلم نفسه لله تعالى وقت العقاب.

وورد في الإصحاح السادس أن أيوب دعا الله تعالى أن الموت خير له.

وورد في الإصحاح السابع أن أيوب ندم بعد ذلك وتأسف على أنه تمنى الموت.

وجاء في الإصحاح الثامن أن أحد مريديه الذي كان يدعى بِلْدَدُ قال له أن الله تعالى يعاقب المجرمين دائمًا.

وجاء في الإصحاح التاسع أن أيوب رد على من اعترضوا عليه أني لا أدّعي بأني بار، ولا أقول إن الله ليس عادلاً. إن الله عادل حتمًا، ولكن الموت والهلاك يأتي على كل واحد. بيد أنه تعالى يعاقب البريء اختبارًا. ثم قال إن الأرض فيها حكام أشرار، وأرى أن عمري ينقضي بسرعة. ولا جدوى من قولي بأني سأصبر حق الصبر لأنكم ستعتبرونني مذنبًا حيث توقنون أن الله تعالى لا يعاقب إلا شريرًا، أما أنا فأوقن أن الله تعالى يبتلي البريء أيضًا بالمحن.

وفي الإصحاح العاشر قد أنهى العهد القديم قصة أيوب بأن تلاميذه الذين كانوا يحاجّونه أوحى الله إليهم وأمرهم أن يأتوه بالعجول والأكباش، ليقدم القربان

كفارة لذنوبهم. ثم ورد أن أصدقاءه وأهله وأولادهم كلهم رجعوا إليه، وتضاعفت أمواله، ورُزق عمرًا طويلاً.

وكما أسلفتُ، توجد في الهند أيضًا قصة كهذه، واسم صاحبها هريش تشندر عند الهندوس، وهي مماثلة لقصة أيوب تقريبًا. إذ قد ورد فيها أيضًا أن الشيطان دخل على الله تعالى مع الآلهة، فلما رأى اللهَ تعالى يثني على هريش تشندر، قال لله تعالى بأن يأذن له بتدمير ماله. بيد أن هريش تشندر ظل متمسكًا بالصدق والسداد. لقد تعرض لتجارب كثيرة ولكن لم تزلّ قدمه.

وهناك في العهد القديم ما يشير إلى أن قصة أيوب قد جاءت من الهند، وأن أيوب- على الأغلب - ترجمة لاسم صاحب هذه الواقعة، وأنه سمي به على سبيل الاستعارة. وتلك الإشارة هي أن العهد القديم يذكر عن صاحب هذه الواقعة أنه لم يوجد مثله في الشرق مالاً. هذا يؤكد بكل وضوح أن هذه القصة جاءت من الشرق أي الهند، وأُدخلت في العهد القديم. لقد سجلنا فيما أعلاه ما ذكره المفسرون وما ورد في العهد القديم من روايات بهذا الصدد، ويتضح بالجمع بينها أن المفسرين قد نقلوا عن اليهود، لأن ما ذكروه يتفق مع ما ذكره العهد القديم في كثير من الأمور، كما يختلف معه في بعضها. إن هذا الاتفاق والاختلاف في الوقت نفسه لدليل على أن مصدر المعلومات واحد، ولكن لا يمكن الاعتماد عليه تمامًا. أما القرآن الكريم الذي هو منـــزه عن مثل هذه المهازل كلها، فقد حذف من القصة كل ما هو لغو. وإن الوقائع التي قد ذكرها القرآن إنما تبين أن أيوب عليه السلام كان يملك أموالاً طائلة، وكانت لـــه عائلة كبيرة. وكان يسكن في بلد وثني، وكان ملكُه ظالمًا. والدليل على كون الملك ظالمًا هو قولُ الله تعالى ﴿إذ نادى ربَّه أنّي مَسَّنِيَ الشيطانُ بنُصْبٍ وعذابٍ﴾(ص:٤٢). والشيطان في اللغة العربية هو المتمرد والطاغي (الأقرب)، فالمراد من هذه الآية أن الملك الطاغية قد أصابني بأذى وتعب وعذاب. أي بسبب عدوان هذا الطاغية قد اضطررتُ للهجرة من مكان إلى آخر، وقد ألحق الضرر بمالي وعائلتي، وهكذا آذاني. والدليل على قولي بأن أيوب كان اضطر للهجرة جراء ظلم ذلك الطاغية هو قوله تعالى ﴿ارْكُضْ برِجلك هذا مغتسَلٌ

باردٌ وشرابٌ﴾(ص: ٤٣)، وأيضًا قوله تعالى ﴿وخُذْ بيدك ضِغْثًا فَاضْرِبْ به ولا تَحْنَثْ﴾(ص: ٤٥).. أي ارْكُضْ بدابتك، واضْرِبْها أيضًا بغصن شجرة لكي تحثّها على السير بسرعة، وعندما تفعل ذلك ستجد أمامك عين ماء تغتسل به وتشرب منه أيضًا.

يتضح من هذه الآية أيضًا أن أيوب كان يسكن في منطقة جبلية. وبإمكان الذين قد زاروا منطقة كشمير استيعاب هذا المشهد جيدًا. فإن أهل كشمير عندما ينـــزلون من المناطق الجبلية على صهوات خيولهم يركضونها ركضًا، كما يضربونها بأغصان الشجر أيضًا من أجل السرعة. كما توجد في كشمير عيون المياه الباردة.

إذًا فإن كل ما يتضح لنا من رواية القرآن الكريم إنما هو أن أيوب عليه السلام قد هاجر بأمر الله تعالى من بلده، الذي كان منطقة جبلية ذات عيون ماء، وأنه ركض بفرسه خلال السفر – وليس أنه ركض الأرض برجله وفجّر عين ماء – كما كان يضرب حصانه بغصن كثير العُود ليحثّه على السير بسرعة؛ وليس أن زوجته دعته إلى الشرك بالله تعالى، فحلف بأن سيضربها مئة سوط، ثم احتال وأن أخذ ضغثًا فيه مئة عود وضربها به إبرارًا ليمينه. لقد انخدع المفسرون بكلمة ﴿ولا تحنث﴾ التي تعني ولا تُخلف يمينك، وقالوا إن الله تعالى أمر أيوب عليه السلام أن لا يخلف يمينه، بل عليه أن يضرب زوجته بضغث فيه مئة عود. مع أن الله تعالى لم يذكر مئة سوط، ولا الضرب بمئة عود. إن الضغث إنما يعني الغصن الذي فيه أعواد جافة وخضراء أيضًا، ومثل هذا الغصن هو الذي يستخدمونه عادةً لضرب الفرس، حيث يكون رخصًا لخضرته، كما يؤلم جلد الفرس بجفافه عند الضرب.

ثم إن الحنث يعني الميل إلى الباطل، وعليه فكان من واجب المفسرين، بدلاً من أن ينسجوا تلك القصة غير المعقولة، أن يفسروا الآية بأن الله تعالى أمر أيوب عليه السلام بالهجرة عن أرض ذلك الملِك الظالم، لأن القرآن يقول إن الله تعالى أمره بأن يركب حصانه ويركضه ويضربه بغصن شجرة، ويخرج عن ذلك البلد بسرعة، ويبتعد عن المشركين بدون تأخير، وأن لا يميل إلى المشركين.. أي لا يعيش بينهم. ذلك لأن الحنث لا يعني هنا الميل إلى الباطل بالقلب، بل يعني الميل إلى الحنث بالجسد الذي

معناه هنا الجوار. وهكذا قد أمره الله تعالى أن يخرج من منطقة الشرك بسرعة، غير مكترث لما يصيبه بركوب الفرس من نصب وتعب. إذ ليس هناك من علاج للنصب الذي يصيبك من قبل الملِك، ولكن نصب الركوب فعلاجه ممكن، وهو أن أمامك عين ماء، فاغتسلْ فيه، واشرب منه، ولا تتأسف على ترك ذلك البلد لأننا سنوصل إليك أقاربك كلهم، بل نعطيك مثلهم أيضًا.. أي سيكون لك في البلد الجديد أيضًا محبّون مخلصون.

ونجد هنا نوعًا من التشابه بين النبي ﷺ وأيوب عليه السلام. لقد اضطر النبي ﷺ للفرار من بلد الشرك الذي لم يكن به ماء. ثم بعد ذلك أوصل الله تعالى بفضله زوجتيه ﷺ اللتين ترَكهما في مكة وقت هجرته إلى المدينة، كما آتاه الله تعالى في المدينة مزيدًا من الأزواج المطهرات الصالحات مثلهما. وهذا ما وعد الله به أيوب هنا فقال لـــه، اخرُجْ مِن مُلك هذا الملِك المشرك، وهاجِرْ إلى بلد آخر، وسنفرّج عنك كروبك هناك، وسنُلحق بك أقاربك، بل نهب لك المزيد مثلهم؛ كما نمدّك بالماء الوفير للغسل والشرب.

وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٦﴾

التفسير: كان إسماعيل الابن البِكر لإبراهيم عليهما السلام، وإن كان المسيحيون يسعون إلى حرمانه من حقه باعتباره ابن الأَمة بشتى الأعذار (التكوين ١٦: ١-١٥). وأما إدريس عليه السلام فقد سبق أن سجلنا وقائع حياته لدى تفسير سورة مريم. أما الآن فنقدم هنا بحثنا حول ذي الكفل.

لقد ذُكر اسم ذي الكفل في موضعين من القرآن الكريم، أولهما هذه الآية من سورة الأنبياء حيث ذُكر مع إسماعيل و إدريس عليهم السلام، وثانيهما في سورة ص (الآية: ٤٩) حيث ذُكر مع إسماعيل واليسع عليهم السلام.

لقد نقل المفسرون المسلمون روايات كثيرة حول ذي الكفل مدعين أنه لم يكن نبيًّا، بل قد اتخذه أحد الأنبياء – أو أحد الملوك بحسب البعض – نائبًا لـــه. كان ذو الكفل يصوم النهار ويقوم الليل، وكان لا يغضب أبدًا. (روح المعاني)

وهناك رواية تُنسب إلى النبي ﷺ في كتب الحديث، بما فيها مسند أحمد وسنن الترمذي، بأن ذا الكفل أعطى امرأة بعض المال ليجبرها على الفاحشة. فأخذت المال لشدة الفاقة والحاجة إليه، ولكنها بكت. فخاف ذو الكفل ربه ﷻ، وتركها تائبًا. (مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، رقم الحديث ٤٥١٧، والترمذي، أبواب صفة القيامة)

ليس في هذا الحديث ما يدل على أن هذا الرجل هو ذو الكفل المذكور في القرآن الكريم، بل إن هذه الروايات نفسها قد ذكرت أن اسم ذلك الشخص كان الكفل؟ فهي – على فرض صحتها – ربما تتحدث عن شخص آخر، حيث إن كل عاقل يدرك أن صاحب هذه الواقعة لا يمكن أن يوضع في عداد الأنبياء فيُذكر مع إسماعيل وإدريس واليسع عليهم السلام.

الحق أن ذا الكفل معرب لحزقيال حيث تنقلب الياء واوًا، والواو ياءً. فليس بمستبعد أن يصير حزقيال إلى حزكفل، ثم ذو الكفل. أو من الممكن أن يكونوا قد ترجموا حزقيال إلى العربية فجعلوه "ذو الكفل"؛ ذلك لأن حزقيال معناه: "الذي قد أُعطي القوة من عند الله تعالى" (الموسوعة التوراتية مجلد ٢: Ezekiel)، وذو الكفل أيضًا يعني صاحبُ الحظّ الكبير. فمن الممكن أن يكون العرب قد سمعوا اسم حزقيال مع معناه الحرفي، ثم صاغوا منه اسمًا آخر "ذو الكفل".

ثم إن ورود ذو الكفل هنا مع اليسع (إشعياء) لدليل آخر على أنه حزقيال نفسه.

وهناك صلة وثيقة بين حزقيال واليسع (إشعياء)، ذلك أن الأنباء التي أدلى بها إشعياء قد تمت في عهد حزقيال، كما أن الكتّاب اليهود يقومون بالمقارنة بين حزقيال وإشعياء أيضًا. (إشعياء ٢: ١، وحزقيال ٤٠: ٢٠-٤٦، والموسوعة اليهودية مجلد ٧ ص ٣٨١: Ezekiel). ويُعتبر حزقيال في كتب العهد القديم واحدًا من الأنبياء الأربعة الكبار (الموسوعة التوراتية مجلد ٢: Ezekiel).

ينحدر حزقيال من أسرة دينية شهيرة. لقد قضى بداية عمره في معبد أورشليم حيث تلقى دراسته الدينية. وكان من ضمن اليهود الذين أسرهم الملك البابلي وأخذهم معه. لقد ذُكرت أحوال زمن أسر حزقيال كلها في كتابه سِفر حزقيال. إنه لم يكن زعيمًا للعلماء، ولكن نظرًا لنفوذه المتزايد ارتأى الملك أن يأخذه معه أسيرًا.

وُلد حزقيال عام ٦٢٢ قبل الميلاد على الأغلب، وتبدأ فترة تلقيه الوحي في ٥٩٢ حينما كان في الثلاثين من عمره. وكان زمن نبوته حوالي ٢٢ عامًا. وتوفي في سنة ٥٧٠ قبل الميلاد عن عمر يناهز ٥٢ عامًا.

لقد تزوج حزقيال. وقد تنبأ بعمران أورشليم ثانية، حيث ذكر القرآن الكريم هذا الأمر في سورة البقرة الآية ٢٦٠.

ويكتسب حزقيال أهمية خاصة من حيث إن اليهود قد امتنعوا بعد زمنه كلية تقريبًا عن العبادة الظاهرة للأصنام التي كانوا يعودون إليها مرة بعد أخرى في العصور السابقة.

ويرى بعض أئمة علماء الكتاب المقدس أن حزقيال كان آخر أنبياء بني إسرائيل، وأن الذين جاءوا بعده إنما كانوا في الحقيقة علماء كبار فحسب، أو بتعبير آخر لم يكونوا أنبياء بل كانوا مجددين فقط. (المرجع السابق)

كان حزقيال يسمي نفسه ابن آدم. (انظرْ سفر حزقيال ٢: ١، ٣: ٢٥، ٤: ١، ٥: ١، ٦: ٢) – وكان المسيح عليه السلام أيضًا يسمي نفسه ابن آدم، وورد عن أخنوخ أيضًا أنه كان يسمي نفسه من أبناء آدم – وباختصار قد سُمي حزقيال بكثرة ابن الإنسان أو ابن آدم، بل حينما خاطبه الله تعالى سماه ابن آدم. وهذه إحدى المشابهات بينه وبين إدريس والمسيح عليهم السلام.

لقد لزم حزقيال الصمت لفترة، مدعيًا أنه قد فعل ذلك بأمر الله تعالى (حزقيال ٣: ٢٦). وهنا نجد شَبَهًا بينه وبين زكريا عليهما السلام.

يتضح من سفر حزقيال أنه كان من المعجبين بنبوخذنصر، وكان يرى أن ما فعله نبوخذنصر ضد بني إسرائيل ومصر وصور (Tyre) كان أمرًا مشروعًا، وكان نتيجة حتمية لسيئات هؤلاء (حزقيال ٢٦: ٧).

وسفر حزقيال هو الكتاب الوحيد الذي كتَب جزءًا منه نبيٌّ من الأنبياء. ويبدو أن حزقيال قام بتأليف أجزاء منه، بينما حكى أجزاءه الأخرى لغيره على ما يبدو. (الموسوعة التوراتية)

ويتضح من دراسة أسفار النبيَّينِ حزقيال وإرمياء أنهما كان من الداعين إلى عدم مخالفة الحكومة البابلية، بل كانا يدعوان إلى تأييدها، فاعتبرهما علماء ذلك العصر من الخونة الغدارين للشعب (إرميا ٢٦: ١-١١، و ١٨: ١١-٢٠، وحزقيال ١٧: ١١-١٦)، مثلما اعتبر العلماء المسيحَ عليه السلام خائنًا للشعب لدعوته إياهم إلى تأييد الرومان في عهد تيطس، أو كما فعل علماء هذا العصر حيث اعتبروا المسيح الموعود عليه السلام خائنًا بسبب مدحه للإنجليز لمحاربتهم السيخ. أما حزقيال فقد عدّ الذين دعوا إلى محاربة الحكومة البابلية خونةً (حزقيال ١٧: ١١-١٦). فكان يرى أنه ستُقام من بين اليهود المنفيين إلى بابل أمةٌ يهودية جديدة قائمة على دينها. وبالفعل قد تحققت هذه النبوءة، حيث لم يقع اليهود بعدها في الشرك الظاهري قط. وذلك لسببين أولهما أنهم أخذوا العبرة مما حل بهم من العقاب، وثانيهما أنه انكشفت عليهم ضحالة الأصنام وضعفها نتيجة عيشهم بين الأمة الوثنية. وهنا يشبه حزقيال المسيحَ الناصري والمسيحَ المحمدي عليهم السلام.

يبين حزقيال في الإصحاح الأول من سِفره كيف أن الله تعالى تجلى بنفسه في بابل، وكيف فوّض إلى حزقيال مهمة النبوة. ويتضح من الإصحاح الثالث والفقرة ٢٦ أنه أُمر بالصمت في أوائل أيام نبوته مثل زكريا عليهما السلام.

وإن حزقيال أنبأ بنجاة أمته ورقيها مرتين، كما أخبر أنهم يتمتعون بالحماية لزمن طويل. وقد أنبأ أيضًا ببناء معبد أورشليم مرة ثانية، وأعطى التعليمات بهذا الشأن؛ فجميع القوانين التي كان ينبغي أن يتم بناء المعبد بحسبها ثانية والتي كان على الكهّان العمل بموجبها مسجلةٌ في سِفر حزقيال في الإصحاحات ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣ و٤٤.

لا يذكر حزقيال الملائكةَ، ولكنه يؤكد أن الأرواح أخذتْه. ويتضح من ذلك حتمًا أنه يشير هنا إلى الملائكة (حزقيال ٢: ٢).

أما الإنسان فيقول عنه حزقيال إنه مقتدر، فبوسع الشرير أن يصبح بارًّا، وبإمكان البارّ أن يصير شريرًا، وإنما سبيله النية والعزيمة. فقد بيّن في الإصحاح ١٨ في شكل تمثيل كيف أنه من الممكن أن يولد الابن الشرير من الوالد البار، ويولد الابن البار عند الوالد الشرير، وأن إثم الوالد لا يصل إلى الابن ولا يعاقب على خطيئته. فيقول مثيرًا هذا السؤال:

"وأنتم تقولون لماذا لا يحمل الابن من إثم الأب؟ أما الابن فقد فعل حقًّا وعدلاً حفِظ جميع فرائضي وعمِل بها فحياةً يحيا. النفسُ التي تخطئ هي تموت. الابنُ لا يحمِل من إثم الأب، والأبُ لا يحمل من إثم الابن. بِرُّ البارِّ عليه يكون، وشرُّ الشرير عليه يكون. فإذا رجع الشريرُ عن جميع خطاياه التي فعَلها وحفِظ كلَّ فرائضي، وفعَل حقًّا وعدلاً، فحياةً يحيا، لا يموت. كل معاصيه التي فعلها لا تُذكر عليه." (حزقيال ١٨: ١٩-٢٢)

لقد اتضح من هذه العبارة أن حزقيال كان يعتقد بأن الحياة الأبدية ممكنة بالتوبة.

ثم إنه يركز على التوبة أكثر فيقول:

"تُوبُوا، وارجِعوا عن كل معاصيكم، ولا يكون لكم الإثمُ مَهْلكةً. اطرَحوا عنكم كلَّ معاصيكم التي عصيتم بها، واعمَلوا لأنفسكم قلبًا جديدًا وروحًا جديدةً." (حزقيال ١٨: ٣٠-٣١)

وورد في المصادر اليهودية أن حزقيال كان من أولاد جُوشوعا. بينما يقول البعض إنه ابن لإرميا. وورد أن حزقيال كان أكثر وصفًا لعرش الله تعالى من إشعياء. ولكن هذا لا يعني، عند علماء اليهود، أن حزقيال أفضل من إشعيا، إنما معناه أنه قد رأى العرش الإلهي مرة واحدة فقط، لذلك كان أكثر حفظًا لتفاصيله؛ أما إشعياء فكان يرى العرش الإلهي مرة بعد أخرى، فلم يولِ تفاصيلَه أهمية كبرى.

ويرى علماء اليهود أن حزقيال كان يحيي الموتى. بينما يرى بعض العلماء أن هذه كانت رؤيا فحسب فظنوها حقيقة. (وهنا أيضًا نجد مماثلة بينه وبين المسيح عليهما السلام). (منمونيديا كتاب مورانيبوكين الباب الثاني الفقرة ٤٦، والموسوعة اليهودية مجلد ٧ صفحة ٣١٥)

وهذه الواقعة مذكورة في القرآن الكريم أيضًا، ويتضح منه أنها ليست إلا رؤيا فحسب. (انظر سورة البقرة: ٢٦٠).

لقد تُوفي حزقيال زمن الجلاء بالقرب من بابل، وقد ظل قبره مزارًا لليهود والمسلمين لمدة طويلة، حيث يقال إنه كان موجودًا بالقرب من دير نمرود في مكان اسمه "كِفل" – وعندي أن في هذا لدليلاً واضحًا على أن كِفل هو اسم حزقيال. (انظر الموسوعة اليهودية مجلد ٧ ص ٣١٦)

ويرى مؤرخو الكتاب المقدس أن حزقيال النبي وُلد في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، وظل حيًّا حتى أواخر عام ٥٧٩ قبل الميلاد تقريبًا. (الموسوعة التوراتية مجلد ٢ ص ١٤٥٧–١٤٥٨). وكان يدعي بتشرفه برؤية الله تعالى. كان ينبئ عادة عن هلاك قومه. لقد ذكر في الإصحاح الثاني من كتابه رؤيا أنه أُرِيَ كتابًا وقيل له أن يأكله. وكان مكتوبًا على ذلك الكتاب: النوح والمأتم والعويل. وكان في ذلك إشارة إلى أنه سيقضي حياته كلها طبقًا لهذه المعاني.

ويبدو أن اليهود صاروا في عهد حزقيال متحضرين جدًّا، وأصبحوا أمة قوية، وإن كانوا ضعفاء سياسيًّا. وبسبب اتحادهم ما كان بوسع أحد أن يُسمعهم الحق، ومن فعل ذلك لازموه كلُّهم ملازمة الغريم. ولذلك قيل لحزقيال بحسب الإصحاح الثالث من سِفره: بلِّغِ الناسَ ما أقول لك، وإن لم تفعل فستُسأل. وهذا هو نفس ما قال الله تعالى لرسوله الكريم ﴿يا أيها الرسول بلِّغْ ما أُنزِلَ إليك مِن ربك وإنْ لم تفعَلْ فما بلّغتَ رسالتَه﴾(المائدة: ٦٨).. أي عليك أن توصل إلى الناس كل التعليم الذي أنزلتُه عليك، وإن لم تبلغهم كل التعليم فكأنك لم تبلغهم شيئًا.

وورد في الإصحاح الخامس من سفر حزقيال أنه أُمر بحلق رأسه ولحيته بالموسى. ويتضح من هذا أن اليهود عندئذ كانوا يطلقون اللحى، ولكنهم كانوا لا يرون ذلك ضروريًّا.

وفي الإصحاح السادس ينبئ حزقيال أن اليهود سيدمَّرون من جراء مخالفتهم لتوحيد البارئ تعالى، ولكن بعضهم سينجو.

وفي الإصحاح السابع يتبنأ حزقيال عن دمار بني إسرائيل مبينًا أن الجماعة الحقة عندما تفسد فتُسلَّط عليها أمم أخرى بغض النظر عن فساد الأخيرة. فهي مهما كانت فاسدة إلا أنها تُسلَّط على الجماعة المنتمية إلى الكتاب الحق، لكي تتوب جماعة النبي هذه وتصلح نفسها.

وفي الإصحاح التاسع يبين حزقيال أن الذين ينتمون إلى الدين الحق ومع ذلك يفسدون فلا تُقبَل الشفاعة في حقهم.

وفي الإصحاح الحادي عشر يخبر حزقيال أن بني إسرائيل سينالون النجاة في آخر الأمر، ويتحررون من قيد الحكومة البابلية.

في الإصحاح الثاني عشر يقول حزقيال إن اليهود يسخرون من كلام الله تعالى ويستهينون بأنبائه، ولكن الله تعالى سيكذّب اليهودَ محققًا أنباء حزقيال.

وفي هذا الإصحاح فقرة تشبه آية من القرآن الكريم شبهًا كبيرًا، وهي: "الذين لهم أعينٌ لينظروا ولا ينظرون. لهم آذان ليسمعوا ولا يسمعون، لأنهم بيتٌ متمردٌ" (حزقيال ١٢: ٢). ويماثلها قول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿ولهم أعينٌ لا يُبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ﴾(الأعراف: ١٨٠).. ذلك لأن الأنعام ترى وتسمع إلى حد ما، ولكن هؤلاء العُمي والصُمّ الروحانيين لا يرون ولا يسمعون شيئًا على الإطلاق.

في الإصحاح الثالث عشر يلوم حزقيال أولئك الذين يدّعون كذبًا وزورًا بأنهم من المقربين لدى الله تعالى.

وفي الإصحاح التاسع والعشرين يتنبأ حزقيال بهزيمة نكراء تلحق بمصر على يد نبوخذنصر، ثم ينبئ أيضًا بعودة الأمور إلى نصابها بالنسبة للمصريين في آخر الأمر.

في الإصحاح السابع والثلاثين والفقرات ١ إلى ١٤ يذكر حزقيال رؤيا لـــه تنبئ عن إحياء بني إسرائيل ثانية. وقد ذكر القرآن أيضًا هذه الرؤيا في سورة البقرة في قوله تعالى ﴿أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاويةٌ على عروشها قال أَنَّى يحيي هذه اللهُ بعد موتها فأماته الله مائةَ عام ثم بعَثه قال كم لبِثتَ قال لبِثتُ يومًا أو بعضَ يوم قال بل لبِثتَ مائةَ عام فانظُرْ إلى طعامك وشرابك لم يَتَسَنَّهْ وانظُرْ إلى حمارك ولنجعلَك آيةً للناس وانْظرْ إلى العِظام كيف نُنشزها ثم نَكسُوها لحمًا فلما تَبيّنَ لـــه قال أعلَمُ أن الله على كل شيءٍ قديرٌ﴾(البقرة: ٢٦٠).. أي فكّر في قصة شخص مر على مدينة متهدمة على سقوفها، فقال متى يعمرها الله تعالى بعد خرابها؟ فأماته الله في المنام مائة عام، ثم بعثه وقال: يا عبدي كم لبثت في هذه الحالة؟ قال لبثت يومًا أو جزءًا من اليوم فقط. قال الله تعالى هذا صحيح، ولكنك لبثت في هذه الحالة مائة عام أيضًا. فانظر إلى طعامك وشرابك فإنه لم يفسد. كما انظر إلى حمارك أيضًا. ويجب أن تدرك بسلامتهما أن قولك صحيح، وأننا أيضًا مصيبون فيما نقول. وقد فعلنا ذلك لكي نجعلك آية للناس. وانظرْ إلى العظام كيف نركّبها في مكانها، ثم نكسوها باللحم. فلما انكشفت عليـــه الحقيقة قال إني أعلم على وجه البصيرة أن الله على كل شيء قدير.

وقد فهم العامة من اليهود من رؤيا حزقيال هذه أنه كان يحيي الموتى حقيقة، ولكن قد قال كبار العلماء إنها مجرد رؤيا فحسب.

(A Commentary on The Holy Bible p. 515 under; Ezekiel)

وقد أساء الناس عامةً فهم هذه الآية القرآنية أيضًا، حيث ظنوا أنها تتحدث عن إحياء حزقيال للموتى حقيقة. مع أنها لا تذكر إحياء الموتى وإنما تتحدث عن إحياء أمة ميتة.

أما في الإصحاحين ٣٨ و٣٩ فإن حزقيال يتنبأ عن خروج يأجوج ومأجوج، وأنهم يستولون على العالم، ولكن الله تعالى سيهيئ في النهاية أسباب هلاكهم.

ثم من الإصحاح ٤٠ فصاعدًا ينبئ حزقيال عن تفاصيل عُمران أورشليم ثانية. علمًا أن سِفره يحتوي على ٤٨ إصحاحًا.

ثم يقول الله تعالى في القرآن الكريم في وصف هؤلاء الأنبياء الثلاثة ﴿كلٌّ من الصابرين﴾، ليبين أنهم أيضًا كانوا صابرين كأيوب، مشابهين له في الصبر على المحن. فقد تحمل إسماعيل عليه السلام فراق أبيه والهجرة من بلده، وأما إدريس وذو الكفل- عليهما السلام - فقد تعرضا لشتى المصائب والآفات كما هو ظاهر من أحوالهما.

وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن هؤلاء كانوا صابرين على الشدائد بلا شك، ولكننا قد أنـــزلنا عليهم رحمتنا أيضًا. فكما آتينا سليمان وأيوب العزة في الدنيا، وهبنا لهؤلاء الثلاثة أيضًا، بالإضافة إلى المصائب الهائلة التي حلت بهم، عزة كبيرة في الدنيا.

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

شرح الكلمات:

ذا النون: النون هو الحوت (الأقرب). فـــ ﴿ذا النون﴾ يعني صاحب الحوت.

ظنَّ: ظنَّ الشيءَ: علِمه واستيقنَه (الأقرب).

لن نَقدِر عليه: قدَر الله عليه: قضى وحكَم به عليه. وقدَر على عياله: ضيّق (الأقرب). فالمراد من قوله تعالى ﴿لن نقدِر عليه﴾ أي لن نحكم عليه، ولن نضيق عليه.

التفسير: ومن هنا يبين الله تعالى أحوال يونس مذكِّرًا أنه هو الآخر كان يشبه هؤلاء الأنبياء جميعًا عليهم السلام. لقد أصابه الأذى في وقت، ثم أعطاه الله عزة

كبيرة أيضًا. يخبرنا الله تعالى أنه خرج ذات مرة من بلده ساخطًا، ولكنه كان على يقين أن الله تعالى لن يضيق عليه. فنادى ربه وقت الشدة وقال لا إله إلا أنت سبحانك وإني أنا المخطئ.

لقد وردت أحوال يونس عليه السلام في سفر يونان من العهد القديم كالآتي: أمره الله تعالى بأن يذهب إلى نينوى التي كانت مدينة كبيرة شريرة، وأن يتنبأ عليهم. ولكنه عليه السلام خاف أن يتوب أهل نينوى فينجوا من العذاب، فبدلاً من أن يذهب إلى نينوى خرج إلى يافا وركب سفينة متجهة إلى ترشيش. ولكن جاء الطوفان فجأة وأحاط بالسفينة. فتوسل الملاحون إلى الآلهة وابتهلوا إليهم كثيرًا، ولكن بدون جدوى. وفي الأخير قرروا بإلقاء القرعة ليعرفوا من هو السبب في نزول هذا العذاب. فخرجت القرعة باسم يونس، فسألوه عن قصته، فحكى لهم ما جرى له، وقال لقد فررتُ من أمر الله تعالى، فألقُوني في البحر تنجوا من العذاب. فألقوه في البحر فسكن البحر. وأمر الله تعالى حوتًا فابتلع يونس. فمكث عليه السلام في بطنه ثلاثة أيام وثلاث ليال. ثم استجاب الله لدعائه في آخر الأمر وأمر الحوتَ بأن يقذفه، فقذفه (اليونان الإصحاحان الأول والثاني).

ومشيرًا إلى هذا الحادث يقول الله تعالى هنا ﴿فاستجبْنا له ونجّيناه من الغمّ وكذلك نُنجِي المؤمنين﴾.

نتعلم من دعاء يونس عليه السلام سرًّا لقبولية الدعاء يجب أن نضعه في الحسبان عند الدعاء دائمًا، وهو أنه ينبغي للمرء أن يقوم بتسبيح الله وتحميده في الدعاء قبل أن يسأله تعالى ما يريد. فترى أن يونس عليه السلام قال في مطلع دعائه ﴿لا إله إلا أنت سبحانك﴾.. أي يا رب أنت الذي تستحق الحمد الكامل، ولا إله يستحق العبادة سواك، ثم إنك مبرأ من النقائص والعيوب كلها. وبعد هذا التسبيح والتحميد عرض مطلبه على الله تعالى، واستعان به على كربته. هذا هو الأسلوب الذي ينبغي على كل مؤمن أن يتبعه، فيجعل التسبيح والتحميد في مقدمة الدعاء. ففي الدنيا أيضًا حينما يذهب سائل إلى دار، يمدح أولاً أهله، ويتغنى بمحاسنهم، ثم في الأخير يعرض عليهم مطلبه، موقنًا بأن مجيئه إليهم لن يذهب الآن سدى. هذا هو الطريق

الذي يجب اتباعه في الدعاء، فعلينا أن نقرّ أوّلاً بقدرة الله وعظمته وجبروته، ثم نحمده ونسبحه، وفي الأخير نعرض عليه تعالى سؤالنا.

وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

شرح الكلمات:

رَهَبًا: رهِب الرجلُ رَهَبًا: خاف (الأقرب).

التفسير: الآن يحكي قصة زكريا عليه السلام مبينًا أنه هو الآخر كان من هذه الجماعة. يقول الله تعالى اذكُرْ زكريا حين دعا ربه وقال يا رب لا تتركني وحيدًا وأنت خير وارث. فتقبلنا دعاءه وأصلحنا زوجته ووهبنا لـــه يحيى – فترى أن أحوال هذه الأسرة كلها تشبه، مبدئيًّا، أحوال أيوب عليهم السلام – ثم يبيّن الله تعالى لماذا بدّل ضِيقهم راحةً. ذلك لأنهم كانوا يسارعون في الحسنات، وكانوا يدعوننا راغبين في إنعامنا وخائفين من عقوبتنا، وكانوا دائمي التواضع والخضوع أمامنا.

وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾

التفسير: ويتحدث هنا عن مريم عليها السلام ويقول اذْكُرْ تلك المرأة التي حافظتْ على عفّتها. فقد أنــزلنا عليها وحينا، وجعلناها وابنَها آية للدنيا كلها.

واعلموا أيها الناس أن هؤلاء كلهم جماعة واحدة، وأنا ربكم جميعًا، فاعبدوني أنا وحدي.

وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٤﴾

شرح الكلمات:

تَقطَّعوا: ﴿وتَقطَّعوا أَمْرَهم بينهم﴾ أي تقسّموا، وقيل: تَفرّقوا فيه (الأقرب).

التفسير: يخبرنا الله تعالى أن أعداء هؤلاء الأنبياء جعلوا دينهم قطعًا، ولكنهم جميعًا سيرجعون إلينا، وسنحاسبهم.

فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٥﴾

التفسير: أي من عمِل الأعمال الصالحة حال كونه مؤمنًا فلن تضيع جهوده، فإنّا نكتب حسناته كلها.

وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٧﴾

شرح الكلمات:

حَدَب: الحدَب: الموج؛ الغِلَظ المرتفع من الأرض (الأقرب).

والحدب: ما ارتفع من ظهر الأرض (المفردات).

ينسِلون: نسَل الماشي في مَشْيه: أسرعَ (الأقرب).

التفسير: أي إنه حرام على كل قرية أهلكناها أن يرجعوا حتى الزمن الذي يُترَك فيه يأجوج ومأجوج أحرارًا، فينتشروا في العالم كله، عابرين أمواج البحار وقمم الجبال.. أي سيطلق سراح يأجوج ومأجوج في الزمن الأخير، أي الروس والشعوب الغربية، فينتشرون في الدنيا بسرعة من على قمة كل جبل وموجة كل بحر.. أي يكونون غالبين على الدنيا كلها، فعندها سيتحقق وعدنا بهلاكهم.

لما كان موج البحر وقمة الجبل مرتفعًا، فقد وردت هنا كلمة ﴿ينسلون﴾ لهؤلاء القوم الذين قُدّر لهم أن ينتشروا في الدنيا كلها عبر قمم الجبال وأمواج البحار. وقد تحقق هذا النبأ في الزمن الحاضر، حيث نجد روسيا مستولية على نصف العالم من جهة، ومن جهة أخرى نجد الدول الغربية غالبة على النصف الآخر. وكل من الكتلتين تسعى جاهدة لترويج مبادئها وترسيخها بين الناس. فأحد الفريقين يحاول نشر الديمقراطية مع كل عيوبها في العالم، بينما يريد الفريق الآخر تقديم أصحاب الكفاءات على الآخرين، قاضيًا على روح الديمقراطية. فهاتان النظريتان تتنافسان في التغلب على العالم في العصر الحاضر. فإحداهما تحاول التغلب على مقادير العالم بزيادة قوة الأفراد، بينما تريد الأخرى الاستيلاء على العالم بتسليم زمام القيادة في أيدي أصحاب الكفاءات العالية وحدهم. وقد صارت هاتان القوتان غالبتين اليوم على العالم كلية، وانقسمت الدنيا كلها إلى حزبين. أما الإسلام فيعارض كلا الفريقين، ويتخذ له سبيلاً مستقلاً وسطًا بينهما. إنه لا يغض الطرف عن الأفراد، كما لا يعارض الانتفاع من كفاءات الشخصيات الفريدة. إنه لا يسمح بقمع حرية الأفراد، كما لا يجيز حرمان الدنيا من كفاءات العباقرة. فتعليم الإسلام حاوٍ بسَعَته النظرتين كلتيهما متخذًا له طريقًا منفصلاً وسطًا بينهما. إنه يقر من ناحية أن الناس ليسوا سواسية من حيث الكفاءات العقلية، بل هم متفاوتون، كما أن بعضهم أكثر تضحية من بعض، وبعضهم أكثر فطنة من بعض؛ فيجب أن لا يُحرم الشعب من كفاءات هؤلاء الذين هم أكثر عقلا ودراية وفكرًا. ولكنه يسلّم أيضًا

بأن لرأي أفراد الشعب ككل أيضًا قوته وأهميته، وأن صرف النظر عنه ليس بأمر هين كما يظن البعض، كما أن إهماله ليس مناسبًا فيما يتعلق بالرقي الإنساني.

وباختصار إن هذين المبدأين قد قسّما العالم اليوم كلية، فصارت نصف الدنيا في جانب ونصفها الآخر في الجانب الآخر.. فنصف العالم مشغوف بالديمقراطية، ونصفه الآخر مولع بالدكتاتورية. ولكن كلام الله تعالى يخبرنا أن الفتح حليف الإسلام في آخر الأمر، وسيقضى على القوى المعادية للإسلام. لقد طال حكم هذه القوى على الدنيا، وقد ثارت غيرة الله الآن، ليقام حكم محمد ﷺ على الدنيا مرة أخرى. إن ملكوت الله سينـــزل على الأرض الآن ثانية. سيُمحى أثر أعداء الله تعالى مهما وقفت شعوب الدنيا مؤيدة لهم بكل ما أوتيت من قوة. ولا جرم أن ذلك اليوم سيكون مباركًا جدًّا للدنيا. سيستوي ربنا على عرشه ثانية. وسترفرف راية رسولنا ﷺ عالية مرة أخرى. وتنتشر رسالة الأمن والصلح التي جاء بها رسول الله ﷺ في الدنيا من جديد، وستصاب ألسنة الأعداء بالعِيّ والصّمم، وسيعترفون بأفواههم أنهم قد فشلوا في إرغام من اختاره الله وقدّسه ﷺ، وأنهم جد نادمين على تصرفّهم هذا.

وجدير بالذكر هنا أن قول الله تعالى ﴿وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يَرجِعون * حتى إذا فُتحتْ يأجوجُ ومأجوجُ وهم مِن كل حدبٍ ينسِلون﴾ لا يعني أن الموتى سيعادون إلى الحياة في زمن يأجوج ومأجوج. ذلك لأن القرآن الكريم ينفي إحياء الموتى ثانية في هذه الدنيا بشكل قطعي. فهو يعلن صراحة أن بعض الأرواح ستلتمس من الله تعالى بأن يرجعها إلى الدنيا لكي تعمل صالحًا، فيرد الله عليها وقال ﴿كلا إنها كلمةٌ هو قائلها ومِن ورائهم برزخٌ إلى يومِ يُبعثون﴾(المؤمنون: ١٠١).. أي هذا محال لأنه قد جُعل بين الأرواح وبين هذه الدنيا حدّ عازل يحول بينهما إلى يوم القيامة، ومن المحال أن تعود أي روح إلى الدنيا. فثبت أن إحياء الموتى ثانية في هذه الدنيا مستحيل كلية بحسب تعليم القرآن الكريم.

فماذا يعني قول الله هذا إذًا؟

اعلم أن المراد من قول الله هذا، كما سبق أن ذكرنا في ملخص هذه السورة، أن أي أمة إذا هلكت فلا تُعطى الفرصة للنهوض ثانية في السنة الإلهية، ولكن في زمن يأجوج ومأجوج وبعد هلاكهم سيجري من عند الله تعالى تيار فريد من نوعه سيقضي به على نظام الكفر، وسينهض المسلمون، الذين لن تبقى فيهم أي آثار للحياة، كأمة منتصرة قوية مرة أخرى، وسيكون الإسلام غالبًا على العالم كله.

وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٨﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٠﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠١﴾

شرح الكلمات:

شاخصة: شخَص بَصَرُه: فتَح عينيه وجعَل لا يطرِفُ مع دوران في الشحمة. شخَص ببصره: رفَعه (الأقرب).

زفير: الزفير: الداهيةُ؛ أوّلُ صوت الحمار (الأقرب).

وفي المفردات: الزفير: تردّدُ النفَس حتى تنفتح الضلوعُ منه.

التفسير: يخبر الله تعالى أنه إذا حان موعد تحقق الوعد، أي إذا جاء وقت عقاب هذه الشعوب فستظل أعينهم مفتوحة لا تطرف، وسيقولون فيما بينهم الويل لنا، لقد كنا عن هذا اليوم غافلين، بل زدنا إثمًا وسوءًا. فيقول الله لهم ستدخلون اليوم أنتم وآلهتكم في جهنم. لو كانت آلهتكم حقًّا لما تحملت هذا الذل والهوان.

وهذا إشارة إلى أنه سيتم القضاء على عبادة الأصنام في ذلك العصر وإن كان عصر ظلام شديد. كما أن فيه إشارة إلى أن هذه الشعوب ستظل تزهو وتفتخر

بقوتها كثيرًا إلى زمن، ولكن حين يأتي عقابها فسترفع الصراخ والعويل، ولن تتعاون فيما بينها.

إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٤﴾

شرح الكلمات:

حسيسَها: الحسيس: الصوتُ الخفيّ (الأقرب).

التفسير: أي أن الذين قد سقنا لهم البشرى من قبل سيُنجَون من هذا العذاب، ولن يسمعوا ولو صوتًا خفيًّا منه. وسيُعطَون كل ما تتمناه قلوبهم، وسيظلون يتلقون هذه المعاملة لزمن طويل. لن يصيبهم حزن بسبب دمار العذاب الأكبر، وستنـــزل عليهم الملائكة التي ستُهدّئهم قائلة هذا هو اليوم الذي كنتم توعدون به.

يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٥﴾

شرح الكلمات:

نَطوي: طوَى الصحيفةَ: نقيضُ نشَرها (الأقرب). و"كطَيِّ السِّجِلِّ لِلكتاب": أي كَطَيِّ الكاتبِ للكتاب.

التفسير: يخبر الله تعالى أن ذلك يوم سنطوي فيه السماء، أي إمبراطوريات ذلك العصر، كما تطوي صفحةُ الكتاب الكتابةَ، وسنعلن أننا سنُعيد خلقكم كما خلقناكم أول مرة. هذا وعد أكيد لا بد أن نحققه.

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

شرح الكلمات:

بلاغًا: البلاغ: الانتهاءُ إلى أقصى المقصد والمنتهى؛ التبليغُ؛ الكفايةُ (المفردات).

التفسير: يبين الله تعالى هنا أننا كنّا كتبنا في الزبور بعد ذكر الشروط أن الأرض المقدسة سيرثها عبادي الصالحون، وإن في هذا لرسالة لقوم عابدين. ولقد بعثناك رحمة للدنيا كلها.

أي ينبغي أن لا ينخدع أحد، لدى احتلال بني إسرائيل لهذه البلاد، حول ما تنبأنا به في العهد القديم بأن الأرض المقدسة إنما يعيش فيها عباد الله الصالحون؛ ذلك لأن تلك النبوءة كانت تنطوي على نبأ ضمنيّ أيضًا وهو أن عباد الله الصالحين لا بد أن يصبحوا غالبين على تلك الأرض ثانية وإن خرجت من أيديهم لفترة، حيث قال الله تعالى ﴿إن في هذا لبلاغًا لقومٍ عابدين﴾.. أي يا محمد بلِّغْ هذه الرسالة المسلمين ونبِّههم أنه سيأتي زمن يحتل فيه بنو إسرائيل هذه الأرض مرة أخرى. لقد ذكر الله تعالى هنا كلمة ﴿عابدين﴾ إشارةً إلى نبوءة داود عليه السلام.. حيث قال لرسوله ﷺ نبّأْ عبادي وحذّرهم بأنهم إذا ما تهاونوا في أن يكونوا عبادًا لي فإن الله تعالى سيأتي باليهود إلى هذه البلاد. وإذا حصل ذلك فعلى المسلمين أن يصيروا قومًا عابدين ثانية، فيصبحون غالبين تارة أخرى. وليتذكروا أن رسول الله ﷺ رحمة لكل العصور، ولا ينتهي عصره عند استيلاء بني إسرائيل على فلسطين، بل إن عصره ﷺ ممتد إلى ما بعده أيضًا؛ فلا داعي للقنوط، لأن رحمة الله ستفور ثانية، فيصبحون غالبين على فلسطين مرة أخرى.

إن نبوءة الزبور التي تشير إليها هذه الآية هي كالآتي:

"لا تَغَرْ من الأشرار، ولا تحسُدْ عُمّالَ الإثم، فإنهم مثل الحشيش سريعًا يُقطَعون، ومثل العُشب الأخضر يذبُلون. اتَّكِلْ على الرب وافعَلِ الخيرَ. اسْكُنِ الأرض، وارْعَ الأمانةَ، وتَلذَّذْ بالرب، فيعطيَك سُؤْلَ قلبك. سَلِّمْ للربّ طريقَك، واتّكِلْ عليه وهو يُجري، ويُخرِج مثل النُّور برَّك، وحقَّك مثل الظهيرة. انتظِر الربَّ واصبِرْ لـــه، ولا تَغَرْ من الذي ينجَح في طريقه من الرجل المُجري مكايدَ. كُفَّ عن الغضب واتْرُكِ السَّخَطَ، ولا تَغَرْ لفعل الشرّ، لأن عاملي الشرِّ يُقطَعون، والذين ينتظرون الربَّ هم يرِثون الأرض. بعد قليل لا يكون الشريرُ. تطّلِعُ في مكانه فلا يكون. أمّا الوُدعاء فيرثون الأرضَ ويتلذذون في كثرة السلامة." (المزامير ٣٧: ١-١١)

ثم ورد فيما بعد: "الصدّيقون يرثون الأرض ويسكنونها إلى الأبد" (المرجع السابق: فقرة ٢٩).

وليكن معلومًا أن هذا الوعد الذي قُطع مع بني إسرائيل حول الأرض المقدسة لم يكن وعدًا بدون شروط، بل كان منوطًا بشرط البر والتقوى والصلاح، فقيل لهم صراحة بأنهم لو تمادَوا في الشر سادرين في سيئاتهم فسيُنـــزع منهم هذا المُلك. فقد حذّرهم موسى عليه السلام من التمرد والعصيان فقال: "وكما فرَح الربُّ لكم ليُحسن إليكم ويكثّركم، كذلك يفرح الرب لكم ليُفنيكم ويُهلِككم، فتُستأصلون من الأرض التي أنت داخلٌ إليها لتمتلكها. ويبدّدك الربُّ في جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها، وتعبُد هناك آلهةً أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من خشبٍ وحجرٍ." (التثنية ٢٨: ٦٣-٦٤)

ولكن الله تعالى أخبر موسى عليه السلام أيضًا أن بني إسرائيل لو غيّروا ما بأنفسهم فسيُرحَمون. فقد ورد: "يرُدّ الربُّ إلهُك سبْيَك، ويرحمك ويعود فيجمَعك من جميع الشعوب الذين بدّدك إليهم الربُّ إلهُك" (التثنية ٣٠: ٣).

وهذا يعني أن بني إسرائيل قد أُخبروا على لسان موسى عليه السلام أن تلك الأرض ستُنـــزع من أيديهم إذا تجاوز شرهم الحدود، ولكن الله تعالى سيرحمهم بعد فترة من الزمان فيُعطيهم هذه الأرض مرة أخرى. ثم بعد ذلك نبّأ الله بدمار آخر لليهود،

حيث قيل لهم إنهم سيعودون إلى عصيانهم، فيحل بهم العذاب من عند الله تعالى ثانية، فيُطردون من البلد. وهذا النبأ أيضًا قد أدلى به موسى عليه السلام إذ قال:

"أغاروه بالأجانب، وأغاظوه بالأرجاس..... فرأى الربُّ ورَذَلَ من الغيظ بنيه وبناته (وهنا أيضًا ترى أن اليهود كلهم ذكورً وإناثًا قد سُمّوا أبناءَ الله وبناته) وقالَ: أحجُب وجهي عنهم، وأنظُر ماذا تكون آخرتهم. إنهم جيلٌ متقلبٌ. أولادٌ لا أمانةَ فيهم.... أجمَعُ عليهم شرورًا، وأُنْفِذُ سهامي فيهم، إذْ هُمْ خاوُون مِن جوعٍ، ومنهوكون مِن حُمَّى وداءٍ سامٍّ. أُرسلَ فيهم أنيابَ الوحوش مع حُمَةِ زواحفِ الأرضِ. مِن خارجٍ السَّيفُ يُثْكِلُ، ومِن داخلِ الخُدور الرَّعْبةُ. الفتى مع الفتاة، والرضيعُ مع الأشْيَبِ." (التثنية ٣٢: ١٦- ٢٥)

إذًا فإن الله تعالى قد أخبر بني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام بدمارين يحلان بهم، مبينًا لهم أنهم لن يحكموا هذه البلاد حكمًا أبديًّا، بل سيحكمونها أولاً ثم يُنفَون منها، ثم تقع في قبضتهم ثانية، ثم يُنفون منها تارة أخرى.

أمَا وبأية روعة تحقق وحي الله هذا، فيتضح لنا ذلك بقراءة سورة بني إسرائيل (الإسراء) في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتُفسدُنّ في الأرض مرتين ولتَعْلُنّ عُلُوًّا كبيرًا * فإذا جاء وعدُ أولاهما بعثْنا عليكم عبادًا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدًا مفعولاً * ثم رددْنا لكم الكرّةَ عليهم وأمددْناكم بأموالٍ وبنينَ وجعلْناكم أكثر نفيرًا﴾(الإسراء: ٥-٧).. أي أننا أنذرنا بني إسرائيل في التوراة صراحة أنكم ستعيثون في هذه البلاد فسادًا مرتين وتتمردون تمردًا كبيرًا. فلما حان تحقُّق وعدُ أول هذين الفسادَين سلّطنا عليكم عبادًا لنا شديدي البأس ذوي قوة عسكرية كبيرة، فاقتحموا جميع مدنكم وبيوتكم بفلسطين، ودمروا مملكتكم. وكان هذا وعدًا لا بد أن يتحقق. ثم رددنا لكم قوة الهجوم على العدو ورددنا لكم مُلككم، وساعدناكم بالأموال والأولاد، وزدناكم جمعًا وقوة. ولكنا سننـــزع منكم هذه البلاد ثانية.

أما الوعد الثاني فيقول الله تعالى عنه ﴿ فإذا جاء وعدُ الآخرة ليسُوءوا وجوهكم وليدخُلوا المسجدَ كما دخلوه أوّلَ مرة وليتبِّروا ما علَوا تتبيرًا * عسى ربُّكم أن

يرحَمَكم وإنْ عُدْتم عُدْنا وجعَلْنا جهنم للكافرين حصيرًا﴾(الإسراء: ٨-٩).. أي حينما جاء موعد تحقق وعد المرة الآخرة حقّقْنا هذه النبوءة أيضًا، فأعطينا هذه البلاد مؤقتًا لقوم ليسوّدوا وجوهكم ويذلّوا أعزّتكم، ويَدخُلوا المسجدَ كما دخلوه المرة الأولى وينتهكوا حرمته، ويدمّروا كل شيء وكل منطقة تدميرًا.

ولكن ليس بمستبعد أن يرحمكم ربكم، أي أننا سنقرر عندها بإرجاع هذه البلاد، ولكن الله تعالى لم يقل هنا أنه سيرجعها إلى اليهود، بل قال ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾.. أي يزيل عنهم وصمة عار لحقت بهم في العالم، أما إذا عادوا إلى شرورهم الأولى فلا بد أن نعود نحن أيضًا إلى سنتنا، فنعذبهم وننـــزع هذه البلاد منهم، وقد أعددنا جهنم سجنًا للكافرين.. أي سنجعل جهنم سجنًا لكم، أي لن تستطيعوا العودة إلى هذه البلاد بعد ذلك.

لقد تبين من هذه الآيات أن الله تعالى كان قد وعد بأن بلاد فلسطين سيملكها عباد الله الصالحون. وبما أن هذا الوعد قُطع لليهود أولاً فنالوا هذا المُلك، ولكن الله تعالى قد وضع بعض الشروط عند منحه هذه البلاد لليهود، وقال إنها ستبقى في قبضتكم لفترة من الزمان، ثم تنـــزع منكم. وبالفعل جاءت الجيوش البابلية، فدمرت المعابد، وأبادت المدن، واستولت على البلاد كلها، واستمر حكم البابليين عليها قرابة قرن ونصف قرن من الزمان (الملوك الثاني ٢٤: ١٠-١٧، وأخبار الأيام الثاني ٣٦: ٢٠-٢١، والموسوعة اليهودية مجلد ٩: Nebuchadnezzar). ثم تغيرت الحكومة، فاستولى اليهود على البلاد ثانية.

ثم بعد المسيح عليه السلام هاجم الرومان البلاد ودمروها تدميرًا. كما خربّوا المسجد، وذبحوا فيه الخنـــزير. واستمر استيلاؤهم على هذه البلاد طويلا، وأخيرًا تنصَّرَ الملك الرومي نفسه. ولذلك لم يقل الله تعالى هنا إننا نُرجع هذه البلاد لليهود بعد ذلك، بل قال ﴿عسى ربُّكم أن يرحمكم﴾.. أي سنـــزيل عنهم وصمة عار لصقت بهم. فلما أصبح الملك الرومي مسيحيًّا صار يؤمن بموسى وداود وغيرهما من أنبياء اليهود. كان ذلك الملك مؤمنًا بعيسى في الحقيقة، ولكن بما أن عيسى عليه السلام ينتمي إلى الأمة الموسوية فبدأت الحكومة الرومانية تحترم أنبياء اليهود الآخرين أيضًا. كما

احترمت التوراة، بل اعتبرتها كتابًا مقدسًا لها. وكأن الله تعالى شمل اليهـــود بالرحمة.

ولكن الله تعالى يقول بعد ذلك ﴿وإنْ عُدْتم عُدْنا﴾.. أي أنكم لو فسدتم وعملتم الشر بعد ذلك، فسننـــزع هذا المُلك من أيديكم، أي عندها سيأتي المسلمون وتقع هذه البلاد في قبضتهم، ويصيرون مصداقًا لقوله تعالى ﴿عبادي الصالحون﴾، عندها ستُخلق لليهود الجحيم التي يصلَونها دائمًا.

لقد تبين من هذا التفصيل أن الله تعالى قد ذكر هنا ما يلي:

الأول: أن هذه البلاد ستُنـــزع من اليهود وتعطى لأمة أخرى.

والثاني: أنها بعد فترة ستعود إلى قبضة اليهود ثانية.

والثالث: أنها ستُنـــزع منهم مرة أخرى.

الرابع: وأنها ستعاد تارة أخرى، ولكن لا إلى اليهود، بل إلى المسيحيين الذين هم فئة أخرى من الأمة الموسوية نفسها.

الخامس: وأنهم لو أثاروا الشر بعد ذلك – وهنا انضم المسيحيون أيضًا إلى اليهود لأنهم طائفة من طوائف اليهود أصلاً – فإن هذه الأرض ستُنـــزع منهم وستُعطى لأمة أخرى.. أي للمسلمين. ولكن الله تعالى لم يقل هنا إن هؤلاء سيدخلون المسجد لينتهكوا حرمته؛ ذلك لأن المسلمين يقدسون موسى وجميع الأنبياء – عليهم السلام – الذين بُعثوا تابعين لـــه، كما يقدسون أماكنهم أيضًا، فما كان لهم أن يدخلوا مساجدهم ليرتكبوا فيها تلك الأعمال البشعة التي عملها البابليون والرومان.

وإنه لمن المهازل الغريبة التي تدل على نكران الجميل أن البابليين دمروا بلاد اليهود وانتهكوا حرمة مسجدهم، ولكن الكتّاب الأوروبيين عندما يؤلفون كتبهم فلا أحد منهم يسبّ فيها البابليين، ولا يستنكر أعمالهم البشعة، ولا يتهمهم بأي تهمة. ثم إن الرومان أيضًا عندما استولوا على هذه البلاد ذبحوا في مسجدها الخنـــزير؛ وقد ألف المسيحيون الكتب حول التاريخ – مثلما قام "غِبن" (Gibbon) بتأليف كتابه (The Decline And Fall Of The Roman Empire) – ولو قرأت أي

كتاب لهم لوجدتهم يقولون لم يوجد في العالم نظير للإمبراطورية الرومانية (الموسوعة البريطانية مجلد ١٩: الإمبراطورية الرومانية)، مع أنها قد نجّست مسجدهم. أما الأمة التي لم تنجّس مسجدهم فيكيلون لها السباب والشتائم.

لقد فُتحت فلسطين في عهد عمر ﷺ، ولما قدم أورشليم خرج القساوسة لاستقباله وسلموا لـــه مفاتيح المدينة، وقالوا لـــه: أنت ملكُنا الآن، فتعال وصلّ ركعتين في مسجدنا حتى تطمئن أنك قد صليتَ في مكاننا المقدس الذي هو مقدس عندكم أيضًا. فقال لهم عمر ﷺ إني لن أصلي في مسجدكم لأني خليفة المسلمين، فأخاف أن ينتزعوه منكم غدًا محتجين بأنه من الأماكن المقدسة عندهم. لذا سأصلي في الخارج حتى لا يُنـــزع منكم مسجدكم.

فهناك قوم قد قدّموا قربان الخنـــزير في مسجد هؤلاء، ومع ذلك لا تملّ أوروبا من كيل المدح والثناء لهم، وثمة شخص رفض أن يصلي ركعتي نفل في مسجدهم مخافة أن ينتزعه منهم المسلمون، ومع ذلك نجدهم يسبّونه ليلَ نهارَ. فما أشدّهم نكرانًا للجميل وما أبعَدَهم عن الحياء!

وبعد أن وقعت بلاد فلسطين في أيدي المسلمين كان من الممكن أن يقال إنها لم تبق في أيدي اليهود ولا في أيدي المسيحيين، فما هذا اللغز؟

ولكن التدبر في الأمر يزيل هذا الإشكال. ذلك لأنه حينما يحصل الخصام على شيء، ويقوم مدعون كثيرون يدّعون بالوراثة، فيقول الوارث الحقيقي أنا الوارث، فيصدُر الحكم في حقه. وهذا هو ما حصل هنا. كان الله تعالى يريد أن يعطي هذا المُلك أحدًا، وعُرضت القضية عليه ليصدر حكمه فيما إذا كان المسلمون هم الوارثون لموسى وداود أم اليهود والنصارى، فحكم ﷻ بأن المسلمين هم الوارثون الآن لموسى وعيسى؛ فأُعطوا هذا الإرث بحسب هذا الحكم الرباني.

ثم بعد ذلك يقول الله تعالى في سورة بني إسرائيل ﴿فإذا جاء وعدُ الآخرةِ جئنا بكم لفيفًا﴾(الآية: ١٠٥).. أي أنه سيأتي بعد ذلك وقت سيُؤتى فيه باليهود من كل أنحاء العالم ويُسكَنون في فلسطين. وقد حان ذلك الآن حيث استولى اليهود على هذه الأرض.

في الفترة الأخيرة كلما ذهبتُ إلى كراتشي أو لاهور سألني المسلمون كيف وقعت هذه الأرض في أيدي اليهود مع أن الله تعالى كان قد وعد أنها ستبقى في أيدي المسلمين؟ فقلت لهم: أين هذا الوعد؟ بل على العكس يقول القرآن إن اليهود سيُسكَنون فيها ثانية. فقالوا في حيرة: لم نسمع ذلك أبدًا! قلت: ليس بينكم أحد قادر على أن يعلّمكم القرآن، فكيف تسمعون ذلك؟ اقرءوا تفسيري تجدوه فيه.

فالوعد الإلهي بأن اليهود سيعودون إلى أرض كنعان مرة أخرى لموجود في القرآن الكريم في قوله تعالى لليهود ﴿فإذا جاء وعدُ الآخرةِ جئنا بكم لفيفًا﴾.. أي حين يأتي موعد الزمن الأخير سنجمعكم ونأتي بكم هنا. علمًا أن المراد من ﴿وعد الآخرة﴾ هنا وعدُ العذاب الثاني للمسلمين، حيث بين الله تعالى أنه عندما يحل ذلك العذابَ بالمسلمين وتخرج الأرض المقدسة من أيديهم للمرة الثانية، عندئذ سيأتي الله باليهود إلى هذا البلد تارة أخرى.

ومن الناس من يعترض هنا ويزعم أنه بعودة اليهود إلى الأرض المقدسة قد صار الإسلام منسوخًا. وكأن علامة نسخ الإسلام عنده هي أن يستولي ﴿عبادي الصالحون﴾ على الأرض المقدسة، فحيث إن المسلمين لم يعودوا حاكمين عليها فلم يعودوا ﴿عبادي الصالحون﴾!

وهذا الاعتراض يثيره البهائيون عادة. والغريب أن هذه النبوءة موجودة في التوراة في حق اليهود، ومثلُها موجودة في القرآن الكريم أيضًا في حق المسلمين. ورغم وجود تلك النبوءة قد انتزع البابليون هذه البلاد من اليهود وحكموها قرابة قرن من الزمان، ولكن لم تُنسَخ الديانة اليهودية عندها بحسب عقيدة البهائيين. ثم ظلت فلسطين خاضعة لحكم الرومان الوثنيين منذ زمن تيطس الرومي قرابة قرنين بل ثلاثة قرون من الزمان، ولم تكن تحت حكم المسيحيين ولا اليهود، حتى إن الرومان قدموا قربان الخنـــزير في المسجد، ومع ذلك يرى البهائيون أن الديانة اليهودية ظلت على الحق. أما الإسلام فصار منسوخًا في تسع سنوات بعد عودة اليهود إلى الأرض المقدسة في هذا العصر! ما هذا السخف وما هذا العداء؟ إذا كانت النبوءات تصبح باطلة هكذا باستيلاء قوم على أرض قوم آخرين، فقد رأيتم،

أيها البهائيون، كيف انتزع قوم هذه الأرض من اليهود لقرن من الزمان في المرة الأولى، ثم رأيتم استيلاء الكفار عليهم لثلاثة قرون في المرة الثانية، ومع ذلك لم تعتبروا اليهودية منسوخة، ولا المسيحية ملغاة، ولكنكم تعادون الإسلام لدرجة أنكم جعلتم استيلاء اليهود على الأرض المقدسة تسع سنوات فقط دليلاً على نسخ الإسلام! لو طال زمن استيلاء اليهود على فلسطين الآن بقدر ما طال احتلال البابليين والرومان لها في عهد اليهودية والمسيحية، لجاز لأحد أن يقول إن هذه الأرض قد خرجت من أيدي الإسلام. ولكن ما دام زمن استيلاء اليهود عليها لم يطل حتى عُشر تلك الفترة أفليس هذا الاعتراض دليلاً على العداء البهائي الشديد للإسلام؟

ثم من العجب العجاب أن هؤلاء المعترضين هم البهائيون الذين ينطبق عليه المثل القائل: لا في العِير ولا في النفير. ومع ذلك يطعنون في الإسلام. عند المسلمين مكة، وعندهم المدينة، وهما المركزان الهامان للإسلام. فأنتم البهائيون "لستم في أعلى القدر وفي أسفله" فكيف تعترضون على الإسلام؟ إنكم لا تملكون شبرًا من الأرض التي يمكن أن تعتبروها مركزًا لكم. أما الإسلام فلا تزال عنده مكة والمدينة أيضًا، وهما أهم مراكز الإسلام. أما فلسطين فكانت إنعامًا زائدًا، وإذا خرجت من أيديهم مؤقتًا فما الاعتراض على ذلك؟

لقد بدأت البهائية في عام ١٨٤٤، ونحن اليوم في عام ١٩٥٨.. أي لقد مضت على تأسيس ديانتهم مئة وأربع عشرة سنة. ولكنهم لم يقدروا خلال هذه المئة والأربع عشرة سنة على بناء قرية مقدسة لهم. من الممكن أن يقولوا على ذلك إنهم لم يستطيعوا ذلك لأنهم ليس عندهم دولة. ولكنا نقول إننا نحن المسلمين الأحمديين أيضًا ليس عندنا أي حكم ولا دولة، ومع ذلك كانت عندنا قاديان من قبل، أما الآن فقد عمرنا مدينة ربوة في بضع سنين حيث نجتمع هناك ونؤدي الصلوات. ثم إن لنا قرية أحمدية كاملة على قمة جبل الكرمل بفلسطين اسمها الكبابير. فهلّا يدلنا البهائيون على مكان في العالم كله هو خاص بهم، ويجتمعون فيه مثلنا. فلِم يُبدون بغضهم وحقدهم هكذا ضد الإسلام لمجرد استيلاء اليهود على الأرض المقدسة

الذي لم تمض عليه تسع سنين فقط، فيقولون إن هذا يعني أن الإسلام قد صار باطلاً منسوخًا؟ إنهم قد اعتبروا عكّا مركزًا لهم، زاعمين أنه قد ورد في الحديث وفي التوراة أيضًا نبوءة أنهم يملكون هذا المكان. ولكن لا وجود لهم ولا أثر في عكا الآن. فإن زعيمهم شوقي أفندي، الذي كان يقضي معظم أيام السنة في سويسرا بدلاً من عكّا، أيضًا قد تُوفيّ الآن، و لم يتمّ بعد اختيار أي زعيم لهم يأخذ مكانه. ومع ذلك لا يبرحون يثيرون ضد الإسلام المطاعن التي يرتعب منها بعض الجاهلين.

إذًا فما دام حكم البابليين لفلسطين قرابة مائة سنة، وكذلك حكمُ الرومان لها لحوالي ثلاثة قرون، لم يُعَدّ دليلاً على نسخ رسالة موسى وداود عليهما السلام، فكيف يمكن أن يُعَدّ الحُكم اليهودي المؤقت لهذه الأرض، الذي لم تمر عليه إلا بضع سنين، علامةً على نسخ الإسلام؟ كلا، بل إن هذا دليل على صدق الإسلام. ذلك لأن الإسلام نفسه ما دام قد تنبأ بأن المسلمين سيُطردون من تلك الأرض مرة، ليؤتى إليها باليهود ثانية، فلا يمكن أن يُعد ذلك علامة على نسخ الإسلام، بل هو آية على صدقه حيث تحقق ما تنبأ به.

أما إذا قيل: كيف يصح إذًا قول الله تعالى ﴿إن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ فجوابه أن الاحتلال المؤقت للأرض المقدسة قد حصل مرتين في الماضي، وقد حصل الآن أيضًا. وعندما نقول "الاحتلال المؤقت" فهو يعني حتمًا أن المسلمين سيدخلون في فلسطين فاتحين ثانية، ويصبحون ملوكًا لها. وهذا يستلزم أن يُطرد منها اليهود، وأن يوفق الله المسلمين أن يقضوا على هذا النظام الذي يقام بمساعدة الأمم المتحدة وأمريكا قضاء نهائيًّا، وأن يأتوا بإخوانهم ويُسكنوهم في هذه البلاد.

واعلموا أن هذه النبوءة مذكورة في الحديث الشريف أيضًا حيث ورد أن الجيش الإسلامي سيدخل في فلسطين، فيفر اليهود منه ويختبئون وراء الأحجار، وكلما مر جندي مسلم بالقرب من حجر قال له الحجر يا مسلم، يا جندي الله، هذا كافر يهودي ورائي، فاقتُلْه. (البخاري، كتاب الجهاد والسير)

عندما أخبر النبي ﷺ هذا الخبر لم يكن لليهود في فلسطين وجود ولا أثر، فثبت من ذلك أن النبي ﷺ قد نبّأ هنا أنه سيأتي زمان يستولي فيه اليهود على هذه البلاد

مرة أخرى، ولكن الله تعالى سيجعل المسلمين غالبين عليهم مرة ثانية، فيدخل جيش المسلمين في هذه البلاد، فيتتبّعون اليهود من وراء الأحجار ويقتلونهم. لقد استعملت تعبير "الاحتلال المؤقت" لقوله تعالى ﴿أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾.. أي أن فلسطين ستبقى على المدى البعيد في يد قوم هم مصداق لقوله تعالى ﴿عبادي الصالحون﴾. لذا فلا بد أن يدخل أتباع محمد رسول الله ﷺ، الذين هم عباد الله الصالحون، هذه البلاد فاتحين، ولن تقدر القنابل الذرية أو الهيدروجينية الأمريكية ولا المعونة الروسية أن تحول دون ذلك. إن هذا قدر الله، ولا بد أن يقع مهما حاولت الدنيا ردَّه.

قد يعترض هنا أحد قائلاً إن الله تعالى يقول هنا ﴿ فإذا جاءَ وعدُ الآخرةِ جئنا بكم لفيفًا﴾ وأنت تقول إن المراد منه "فإذا جاء وعد الزمن الأخير جئنا بكم لفيفًا"، فما دام الله تعالى قد قال من قبل أيضًا في سورة بني إسرائيل ﴿فإذا جاء وعدُ الآخرةِ لِيَسُوءُوا وجوهَكم﴾ مشيرًا إلى هجوم البابليين؛ فلم لا نقول أن قوله تعالى ﴿فإذا جاء وعدُ الآخرة جئنا بكم لفيفًا﴾.. إنما يشير إلى حملة الرومان تلك؟

والجواب أن هذا غير ممكن، ذلك لأن قوله تعالى ﴿فإذا جاء وعدُ الآخرةِ لِيَسُوءُوا وجوهَكم﴾ جاء في سياق العذاب حيث بين الله تعالى أنه عندما يحين ذلك الوعد سيُهلَكون ويُدمَّرون، أما قوله تعالى ﴿فإذا جاء وعدُ الآخرة جئنا بكم لفيفًا﴾ فجاء في سياق الإنعام حيث بين الله تعالى أنه حينما يأتي وقت هذا الوعد سيأتي بهم الله ويسكنهم في هذه البلاد ثانية. إذًا فكيف يمكن أن يُعتبر نبوءة العذاب إنعامًا؟ فثبت من ذلك جليًّا أن ﴿وعدُ الآخرة﴾ المذكور هنالك هو غير ﴿وعد الآخرة﴾ المذكور هنا. إن ﴿وعد الآخرة﴾ هنالك يعني آخر حلقة من النبوءة المتعلقة بالسلسلة الموسوية، أما ﴿وعد الآخرة﴾ هنا فيعني النبوءة المتعلقة بعصر محمد رسول الله ﷺ. فالوعدان مختلفان رغم تشابه الكلمات. أحدهما وعد العذاب، والآخر وعد الإنعام، وشتّانَ بينهما.

قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٩﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١١٠﴾

شرح الكلمات:

آذنتُكم: آذَنَه الأمرَ: أعلمَه به (الأقرب).

التفسير: أي أن الوحي النازل عليّ يشتمل على التوحيد، أما الأمور الأخرى المذكورة فيه فكلها تابعة لـــه. فلو أنكم لبيتم هذا النداء لورثتم أفضال الله تعالى، أما إذا أعرضتم عن هذا الصوت فاعلموا جيدًا أن ساعة هلاككم آتية يقينًا، عاجلاً أو آجلاً.

إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ﴿١١١﴾ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١١٢﴾

شرح الكلمات:

فتنة: الفتنةُ: الخبرةُ والابتلاء؛ الضلالُ والإثم والكفرُ؛ الفضيحةُ؛ العذابُ؛ العبرةُ؛ المالُ والأولاد؛ اختلافُ الناس في الآراء وما يقع بينهم من القتال (الأقرب).

التفسير: أي أن الله تعالى يعلم الظاهر والخفي من القول، وأنا لا أعلم هل سيؤدي بكم الإنكار للوحي الذي يُعرَض عليكم إلى دمار طويل المدى، أم أنكم ستحققون الرقي لبعض الوقت.

قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٣﴾

التفسير:

لقد عُلّم النبي ﷺ هنا دعاء لأمته، حيث قيل لـــه يا محمد، عليك أن تدعو الله تعالى وتقول اللهم حين يأتي على المسلمين زمن الانحطاط، ويعود اليهود إلى الأرض المقدسة ثانية، فلا شك أن أفراد أمتي سيكونون ضعفاء عندها، ولكن بما أن حُكمهم هو حكمي في الواقع إذ بعثتَني بصفة خاتم النبيين إلى يوم القيامة، فستُعتبر هزيمتهم هزيمتي، ولكنك قد اخترتني محبوبًا لك، وأما اليهود فهم المغضوب عليهم عندك؛ فأبتهل إليك أن ترعى صلتي بك، فتحكم بين قومي وبين اليهود بالحق، وتجعل قومي غالبين على اليهود، لكي يدخلوا في عداد ﴿عبادي الصالحون﴾، ويستولوا على فلسطين مرة أخرى.

ومن الواضح أن الدعاء الذي ورد في القرآن الكريم بلسان محمد رسول الله ﷺ لا بد أن يحظى بالقبول، لأن الله تعالى لا يمازح أبدًا. فعلى المسلمين أن يصلحوا أنفسهم لأن الله تعالى قد حذرهم في القرآن الكريم، كما عليهم أن لا ييأسوا من حسن عاقبتهم، لأن الله تعالى هو الذي قد جعل محمدًا رسول الله ﷺ يدعو لنجاحهم للمرة الثانية، وهو دعاء مستجاب يقينًا.